تيسير خلف

مدونة ابو عبدو

Moviola
موفيولا

رواية

موفيولا

Moviola

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2013 / 6 / 1919

813.9
خلف، تيسير أحمد
موفيولا / Moviola – تيسير أحمد خلف – عمان: دار فضاءات، 2013
الواصفات: / القصص العربية// العصر الحديث/.

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-465-2

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2013

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

موفيولا / Moviola – تيسير أحمد خلف - الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

التوزيع في تونس
فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس
شارع الهادي نويرة. النصرII - تونس 2037
تلفاكس: 21 65 82 70 (216+) - الجوال 39 42 29 98 (216+)
E.mail: fadhahet@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب او أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: باسم صباغ
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

تيسير خلف

موفيولا
Moviola
رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

توضيح

الموفيولا، هي آلة التحرير السينمائي، أي المونتاج.

مرت الموفيولا بمراحل متعددة من التطور، منذ أن ظهرت للمرة الأولى في هوليود عام 1924أ وكانت تكلفتها في ذلك الوقت 600 دولار أميركي، أي ما يعادل 20 ألف دولار في أيامنا هذه.

في عام 1938 اخترع السينمائي الفلسطيني إبراهيم حسن سرحان موفيولا خاصة به، بتكلفة منخفضة جداً، وبحلول ميكانيكية مبتكرة، وظل يحرر أفلامه فيها حتى أيار من عام 1948.

مخيم شاتيلا، 18 أيلول 1982

على غير عادته، لم يأوِ إبراهيم سرحان إلى فراشه مبكراً. ثمة أغنية لعبد الوهاب تبثها إذاعة بعيدة، يحاول أن يتذكر المرة الأولى التي سمع فيها هذه الأغنية.

«سهرت منه الليالي»..

ربما في عام 1937، أو 1938، في سينما فاروق الصيفي، أو سينما الحمراء..

ما كان اسم الفيلم، «دموع الحب» أم «يوم سعيد»؟

لا، إنه «دموع الحب». نعم، يومها، حضر عبد الوهاب، وغنى في سينما الحمراء في افتتاح الفيلم.

يشعل سيجارة، وينهض باتجاه المطبخ الصغير في زاوية البيت الشرقية. يضع القهوة على النار، وهو يدندن بكلمات الأغنية مع المذياع:

«ما للغرام وما لي».

كان مخيم شاتيلا يغط في نوم عميق، وأنوار البيوت أطفئت قبل ساعات. ولولا ضوء المصباح الخافت في غرفته المنتصبة كشاهدة قبر مكسورة، وأغنية عبد الوهاب، لكان المخيم أشبه بمدينة مسكونة بالجن.

تُقطع الكهرباء كالعادة.

يُشعل مصباح الغاز المعد سلفاً. ومن بعيد، يتناهى إلى سمعه صوت محركات سيارات تتوقف، تتبعها جلبة.

يمجُّ سيجارته، ويتوجه نحو النافذة الغربية مستطلعاً.

يرى حركة ضاجّة في عمق الظلام. لا يعير الأمر اهتماماً، فالمقاتلون الذين حوصروا في المدينة ثمانين يوماً، واضطروه وعائلته لمغادرة المخيم، واللجوء إلى أحد أبنية شارع الحمراء، غادرت الدفعة الأخيرة منهم قبل أكثر من أسبوعين، ومن تبقى في المخيم أناس مدنيون، معظمهم نساء وأطفال وكهول.. عادوا إلى بيوتهم مع الإعلان عن نهاية الحرب.

يسكب فنجان قهوة، ويشعل سيجارة أخرى من عقب الأولى، ويجلس مصغياً للأغنية.

«إن صدّ عني حبيبي فلست عنه بسالي»..

- من أين أتى كل هذا الضجر؟

يسأل نفسه، وهو يتأمل الكآبة التي أسبغها ضوء المصباح الشحيح على الغرفة.

«يطوف بالحب قلبي فراشة لا تبالي»..

تعيده أغنية عبد الوهاب إلى يافا.

ينهض إلى صندوق قديم يحتل زاوية قصية. يحمل المصباح معه، ويضعه على طاولة قريبة.

يسحب صورة قديمة بالأسود والأبيض. يتأملها قليلاً. لا يعرف من التقطها بالضبط؟ لكن، مؤكدٌ أنه ليس هو، ولا خميس شبلاق، ولا جمال أصفر، فهما أيضاً معه في الصورة!

– من التقطها يا ترى؟

يحيّره السؤال، فقد مضى عليها أربع وأربعون عاماً. هذا هو خلف طاولة الموفيولا العجيبة، وإلى جانبه جمال، يرتدي جاكيت الكارو، وأمامه خميس، يحدّق في إحدى اللقطات بعدسة مكبرة، وها سريره المعدني الذي كان يلجأ إليه حين تشتد عليه آلام الرقبة والظهر.

«أما رأيت حبيبي في حسنه كالغزالِ»..

يلقي الصورة، ويلتقط أمتاراً مقصوصة من أشرطة سينمائية، ويبدأ النظر إلى لقطاتها المتتابعة، مستعيناً بعدسة مكبرة وضوء المصباح.

– يا الله.. كم مضى على هذه اللقطات؟ ليس أقل من أربعين عاماً مضت كأنها حلم! عن أي حلم يتحدث؟ قل كأنها كابوس طويل لا ينتهي!

حاول أن يقول للمخرج محمد ملص، قبل عام، وهو يُحفّزه على تذكر منام مميز ليرويه أمام الكاميرا، بأنه لم يعد يميز، منذ سنوات طويلة، بين الحقيقة والمنام. وقائع كثيرة كان يظنها حقيقية تبين له أنها أضغاث أحلام، وكثير مما كان يظنها منامات مزعجة، تبين له بالدلائل القطعية أنها حدثت معه حقاً!

«ربي كساه جمالاً ما بعده من جمالِ»..

هو واثق، تمام الثقة، من أنه رأى في طفولته الأخوين، إبراهيم وبدر لاما، في يافا، يصوران كورنيش المنشية، لكن المجلات والكتب التي تحدثت

عنهما تؤكد أنهما لم يصلا مطلقاً إلى فلسطين. توقفا في الإسكندرية وبقيا هناك. كيف ذلك وهو رآهما بعينيه، وتحدث معهما، وتلمس بيديه الكاميرا التي كانا يصوران بها؟!

لم يقل ذلك لمحمد ملص. خشي أن لا يفهمه تماماً، فاكتفى بالصمت والتذرع بعدم تذكر شيء!

«انظره كيف تهادى من رقة ودلالٍ»..

فجأة، يندلع رصاص في مكان قريب. يلقي شريط الفيلم جانباً وينهض إلى النافذة. يمد رأسه مستطلعاً.

تنفجر قنابل مضيئة في سماء المخيم، تحيل ليله إلى نهار.

تبدو إحدى القنابل شديدة القرب من النافذة. تتحرك ببطء شديد. يئز صوتها كما لو أنه احتراق خشب جاف. تعيده إلى أيام الحصار اللعينة، حين أمضى أياماً عدة في ملجأ مدرسة الكادر، قبل أن يتوجه، هو وسائر أهل المخيم، إلى الشقق المهجورة في الحمرا، وعين المريسة، والصنائع.

«قل للأحبة رفقاً بحالهم وبحالي»..

تزدحم الأسئلة في رأسه، وهو يتأمل حركة محمومة في الأزقة. أصوات رصاص من كل الاتجاهات.

- ما الذي يحدث؟ من أين أتى كل هذا الرصاص؟! لماذا يطلق الإسرائيليون القنابل المضيئة؟ إنهم الآن على أطراف المخيم، من جهة المدينة الرياضية باتجاه السفارة الكويتية، وقالوا إنهم لن يدخلوا، ثم ما حاجتهم لدخول المخيم بعد أن غادر المقاتلون؟!

«يبدون صدّاً ولكن هم يضمرون وصالي»..

ينكسر باب الغرفة، وينتصب شبحان أسودان لمسلحين.

لا يجد إبراهيم تفسيراً لما يرى؛ ويكتفي بنظرة ذهول وتساؤل إلى شعار شجرة الأرز على قبعة أحدهما.

يدخل المسلحان إلى الغرفة، ويبحثان عن المذياع.

كان عبد الوهاب قد وصل إلى المقطع الأخير من الأغنية.

«ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضالِ»..

يركله مسلّحٌ فيسقط أرضاً، لكنه لا يتوقف:

«في النضالِ.. في النضالِ.. في النضالِ».

يصوّب بندقيته إلى المذياع. يخرسه بطلقة من بندقيته الـ«M16».

يافا، 26 نيسان 1925

يتوقف قارب مكتظ بالركّاب قرب رصيف الميناء. ثمة سفينة كبيرة رست بعيداً عن الشاطئ، تطلق صافرة أشبه بخوار بقرة طويل.

تتجمّع قوارب صغيرة عند أسفل سلم السفينة، لتنقل الركّاب وحقائبهم إلى الرصيف.

منذ سنوات لم يعد ميناء يافا صالحاً لرسو السفن الكبيرة. ثمة رمال كثيرة تراكمت في قعره.

ينزل الركّاب المبتهجون، من القارب الذي وصل أولاً، إلى رصيف خشبي عريض. ينزل بعضهم وهو ينظر بين قدميه، غير واثق من ثبات الألواح المتراصة، آخرون يلوحون بأيديهم لأناس بانتظارهم، فيما يتولى حمّالون متحفزون نقل الحقائب من القارب بخفة لافتة.

يظهر شابان، غاية في الأناقة، يرتدي أحدهما بذلة داكنة اللون تحت معطف بني مفتوح، ويعتمر قبعة سوداء، والآخر يرتدي بذلة فاتحة ومعطفاً سكرياً، وفي يده غليون صغير.

يتوقف الشابان قليلاً، وهما يتأملان المكان المحتشد بالمسافرين والمستقبلين وجنود الإنكليز، المنشغلين بمراقبة الحشد عن كثب.

بعد قليل من الانتظار وتوقيع الأوراق وختم الجوازات، يخرج الشابان من الميناء، خلفهما حقيبتان كبيرتان وحقائب صغيرة محمولة على عربة، يجرّها حمّال حافي القدمين.

سماء نيسان شديدة الزرقة، تكتنفها ندف غيوم بيضاء تحجب بين حين وآخر شمساً مائلة، والبحر اللازوردي يحضن سفناً أخرى، تبدو من بعيد كأنها مخلوقات خرافية تتأرجح على صفحة الماء المهتاجة، تحمل مئات المهاجرين من يهود بولونيا.

يمضي الشابان وحمّالهما خارج «البور»، باتجاه ساحة الخضر.

تتوقف عربة يجرها حصانان، فيصعدان إليها.

تمضي العربة بهما عبر شارع الخضر، ثم تعبر التقاطع باتجاه اليسار، مارّة بشارع العجمي، لتصل إلى ساحة السراي والقشلة.

قبل خمسة وعشرين عاماً، لبث عبد الله إبراهيم الأعمى، والد هذين الشابين، في ساحة السراي هذه أياماً، بانتظار السماح له بالسفر على ظهر سفينة «البابور»، من ميناء يافا هذا، إلى تشيلي في بلاد أميركا الجنوبية، برفقة عشرات الرجال والنساء والأطفال من بيت لحم، في وقت كانت سفينة أخرى تُنزل عشرات الرجال والنساء والأطفال من يهود روسيا في الميناء نفسه!

بعد فصول أربعة، أمضاها على صفحة الماء، مرّ خلالها على هوانئ لا تحصى، ورأى وجوهاً لا تُمحى من ذاكرته، وصل عبد الله الأعمى إلى ميناء فالبريسو، منهكاً خائر القوى، أشبه بحطام رجل.

تلقفه ابن خالته، الذي أغراه بالقدوم، واستضافه سبعة أيام، استعاد فيها نشاطه، ورغبته في العيش والعمل.

لم تكن الحياة في فالباريسو سهلة أول الأمر، كان يخرج إلى السوق، بعربته الممتلئة بالبضائع المنوّعة قبل بزوغ الشمس، ولا يعود إلاّ بعد غروبها.

وخلافاً لأبناء جلدته «التوركوس»، ذوي الثياب الرثة، والأجساد النحيلة، كان عبد الله يعتني بهندامه، ولا يبيع خارج السوق. أما المال المتجمع معه، فقد ادخره للبدء بتجارة ثابتة، ومجدية أكثر.

بعد سنوات ثلاث غادر السوق، وافتتح محلاً في إحدى ضواحي العاصمة سانتياغو. كان يبيع فيه الأقمشة التي تأتيه من جهات الأرض الأربع. ولم يمض عام آخر، إلا وتزوج ليزا خليل سارة، المهاجرة هي الأخرى مثله من بيت لحم. رآها المرة الأولى وهم يصعدون إلى سفينة الشقاء، فأحبها من النظرة الأولى. كانت عائلتها تتقدمه في الصعود، ثم رآها ثانية بعد ثلاثة شهور، حين ألقوا بجثة والدها في مياه المحيط، بعد أن فارق الحياة محموماً كسيراً على فراق بلدته، ومرة ثالثة حين وصلوا إلى ميناء فالباريسو. كانت متوردة الخدين رغم التعب والسفر المضني.

تعبر العربة ساحة السراي. تمر ببناء قديم يشرف على الساحة يسمونه القشلة، وهي الثكنة بالتركية.. هنا كان مقر الحامية العسكرية العثمانية.

تصل العربة إلى شارع بستروس. يبدو أشبه بسوق تجاري، تصطف على جانبيه المحلات بشكل، يصعب فيه تمييز محل عن آخر.

يُخرج أحد الشابين منظاراً بعين واحدة، ويبدأ التحديق به، متجولاً في أرجاء السوق، فيما ينشغل الآخر بتسجيل ملاحظات على دفتر صغير.

تتوقف العربة أمام مبنى كبير في نهاية السوق، قبل التقاطع المؤدي إلى شارع المحطة وشارع ارشيد. ثمة لافتة بالعربية والإنكليزية تعلو مدخله: «فندق الجزيرة».

يافا، 15 أيار 1925

يتجمع فضوليون كثيرون حول كاميرا سينمائية منصوبة في شارع المنشية، يظهر أحد الشابين بكامل أناقته من وسط الحشد، وهو يطلب من المتجمهرين الابتعاد عن الكاميرا.

لا يستجيب له أحد في البداية لكن، عندما يرفع صوته، ويهددهم بدورية إنكليزية تظهر من بعيد في أول الشارع، يتفرقون في الاتجاهات الأربعة، إلاّ طفلاً صغيراً لا يتجاوز العاشرة من عمره، يبقى مسمّراً في مكانه، يراقب الكاميرا والشاب بذهول.

ينظر إليه الشاب نظرة مستهجنة، ويعود إلى التحديق في العدسة باتجاه البحر.

بعد قليل، يحضر الشاب الآخر، ويبدأ التحديق في الكاميرا وتسجيل ملاحظات في دفتره الصغير.

يقترب الطفل منهما:

- أهذه كاميرا؟

ينظر الشابان باستغراب إلى الطفل الفضولي، فيجيبه الشاب الأكبر:

- نعم هذه كاميرا. وأنت، من أين تعرف الكاميرا؟

يحك الطفل رأسه، وتعلو وجهه علامات الخجل والفخر:

- رأيتها عند الخواجا آغوب!

يقرفص الشاب الأصغر، حتى يصبح بطول قامة الطفل، ثم يمسك كتفيه بيديه ويقول مداعباً:

- ما اسمك يا شاطر؟

- إبراهيم سرحان.

- اسمك على اسم شقيقي، وأنا اسمي بدر. هذه كاميرا سينمائية يا إبراهيم، وليست مثل كاميرا الخواجا آغوب. هل من الممكن أن تتركنا نعمل؟

يتجاهل الطفل كلام الشاب، ويقترب من الكاميرا، ويحاول لمسها، تشبه الصندوق الخشبي.

- ماذا تعني كاميرا سينمائية؟

يبتعد بدر باتجاه البحر. يشعل غليونه، فيما يطرق إبراهيم قليلاً، ويتوجه نحو الطفل:

- ألم تذهب إلى السينما من قبل؟

يهزّ الطفل رأسه بالنفي.

يتابع إبراهيم، بعد أن ينجح في تجميع أفكاره:

- يا شاطر! هذه الكاميرا تصوّر الحركة يعني، أنت تستطيع أن تضحك، وأنا أصور ضحكتك وأعرضها كما هي بالضبط، لكن من دون صوت.

ترتسم دهشة على وجه الطفل الذي يباغت الشاب سائلاً:

- الكاميرا وقد فهمناها، ماذا تعني السينما؟

يلتفت إبراهيم نحو بدر، وينادي بصوت مرتفع وهو يضحك:

- بدر تعال اسمع، يسألني عن معنى سينما، هل تستطيع أن تشرح له معناها؟

يقترب بدر من الطفل، بعد أن يسحب نفساً من الغليون، ويسأله، بعد لحظة تأمل:

- هل تعرف صندوق العجائب؟

- رأيته مرة من بعيد.

يفتعل بدر ابتسامة مبالغاً فيها، ثم يمط شفتيه ويرفع حاجبيه وهو يهز رأسه:

- مشكلة.. كيف أشرح له؟

يلتفت بدر إلى الشاب الآخر:

- إبراهيم.. لا يعرف صندوق العجائب.

يأخذ إبراهيم يد الطفل، ويمشي برفقته خطوات، وهو يتكلم ساهماً:

- اسمع يا شاطر، السينما صندوق عجائب، عالم مسحور، مغامرات، مناظر.. السينما «خراريف»، «خرّافية حلوة»، حب، غزل، غرام، انتقام.. السينما صراع .. صراع.

يربّت بدر على كتف الطفل، منهياً استرسال شقيقه بلهجة حازمة:

- هيا يا شاطر، اذهب إلى بيتكم، وغداً اطلب من والدك أن يأخذك إلى السينما. هناك، ستفهم كل شيء.

يغادر الطفل المكان مكرهاً، ويودعهما بتلويحة متثاقلة من يده. يمضي عشرات الأمتار، لكنه يتوقف ليعيد النظر إليهما.

ينهمك إبراهيم وبدر بالتحديق في عدسة الكاميرا وتبادل الحديث. ومن بعيد، يلمح الطفل أشخاصاً يتجمعون حولهم، وسيارة الدورية الإنكليزية تقف قرب التجمع.

يتابع الطفل المشهد بصمت، فيعلو الصياح، وتختلط السماء بالبحر.

يافا، 13 آب 1935

سماء يافا صافية، والريح معتدلة، والشمس في منتصف السماء.

يقف رئيس البلدية، عاصم بيك السعيد، ببدلته البيضاء وطربوشه الخمري، على رصيف الانتظار في محطة المنشية بين جموع المنتظرين. طرابيشهم وعمائمهم وحطّاتهم تفصح عنهم. تجار وشيوخ وصحفيون ومعلمو مدارس.

ثمة فضوليون أغراهم منظر الحشد، فأتوا مستطلعين؟

منذ شهور قليلة، انتخب عاصم بيك رئيساً لبلدية يافا، فأصدر تعليماته بترميم المبنى وإصلاحه بعد أن لحقت به عاديات الزمن، فتركت آثارها على جدرانه وأبوابه ونوافذه العالية المقنطرة.

بنيت المحطة في حي المنشية الذي شكل التوسع الشمالي خارج المدينة القديمة، كان المهندسون الألمان في عهد السلطان عبد الحميد قد وضعوا مخططات شطرنجية للمدن المرشحة للتوسع، فكان حي المنشية ثلاثة شوارع طولانية مستقيمة، تقطعها شوارع عرضية مستقيمة أيضاً.

مبنى محطة المنشية صغيرٌ نسبياً، وفقيرٌ بعمارته، مقارنة مع محطة الحجاز في دمشق، أو محطة حيفا ذات البرج المميز بساعته وأسقفه القرميدية، والتي تتداخل فيها الملامح الفيكتورية الأوروبية مع الزخارف المحلية الإسلامية.

ربما، أسبقية محطة يافا ما جعلتها فقيرة إلى هذا الحد، فقد بنيت، هي ومحطات القدس وأبو غوش واللد في العام 1889، وفق مخطط هندسي واحد، وضعته ونفذته، بتقشف كبير، شركة فرنسية. في الطابق الأسفل قاعة كبيرة للانتظار، وكوة لبيع التذاكر. وفي الطابق الأعلى قاعة أصغر لإدارة المحطة ومراقبة القطارات.

كان الهدف من خط يافا ـــ القدس خدمة الزوار الأوروبيين بالدرجة الأولى، بعد أن كانت عربة «الكروسة» الوسيلة الوحيدة لنقل المسافرين بين القدس وميناءها، يافا. ولذلك، لم توله السلطنة العناية التي أولتها للخط الحجازي بتفرعاته المختلفة، ومنها تفريعة درعا ـــ طبريا ـــ حيفا.

في مرحلة لاحقة، ربطت يافا بطولكرم، وصولاً إلى حيفا شمالاً، وبالمجدل وغزة، وصولاً إلى مصر جنوباً.

كان الخط الحجازي يمثل قيمة رمزية كبرى للسلطان عبد الحميد، ولهيبة السلطنة.

ينظر عاصم بيك إلى ساعته، ثم ينقل نظره إلى قطار قادم من جهة اللد، يطلق صفارته معلناً وصوله.

يقترب الحشد من بعضه أكثر فأكثر، عند توقف عجلات القطار.

يحاول رئيس البلدية أن يفرض هيبته على المحتشدين بتقطيبة، يفهمون منها ضرورة إفساح المجال لنزول الضيوف.

ينفتح باب العربة ذات الدرجة الأولى. يهبط منها الأمير سعود بن عبد العزيز بعقاله المكعب، وعباءته الشفافة ذات اللون الفاتح، وقامته الطويلة، يتبعه مفتي فلسطين الأكبر، الحاج محمد أمين الحسيني، بزيه الشرعي

وابتسامته الأبوية المعهودة، وقامته المعتدلة، يتبعهما عدد كبير من مرتدي العُقُل العادية والعباءات السود، والبذلات والطرابيش.

فجأة، يظهر إبراهيم سرحان؛ حاملاً على كتفه اليمنى كاميرا سينمائية، ويبدأ تصوير الأمير وهو يسلم على صف المستقبلين الطويل.

يثير ظهور الكاميرا ارتباك الضيوف والمستقبلين. غالبيتهم لا يفرقون بين الكاميرا السينمائية والكاميرا الفوتوغرافية.

يتوقف بعضهم، ويأخذ وضعية التمثال لكي لا يفسد الصورة، متذكرا تعليمات الخواجا آكوب، فيثير توقفه جلبة وفوضى، تخالفان تعليمات رئيس البلدية الذي يعود إلى توزيع تقطيباته على المشاغبين.

يشير المفتي للأمير بأن يقف، هو وباقي أعضاء الوفد، لأخذ لقطة جماعية مع عاصم بيك السعيد وباقي وجهاء يافا.

يلتف الجميع حول الأمير سعود والحاج أمين وعاصم بيك، وهم مبتسمون بانتظار اللقطة.

يوقف إبراهيم سرحان الكاميرا وملامح التذمر على وجهه:

- أرجو أن تتحدثوا وتتحركوا، لأن اللقطة سينمائية متحركة. لا تتوقفوا وكأنكم تأخذون لقطة فوتوغرافية ثابتة.

لا يفهم كثيرون ما يقول، فيبتسم المفتي، ويبادر فور تشغيل الكاميرا إلى الترحيب بالأمير سعود في مدينة يافا عروس البحر، فيبادله الأمير الابتسام والحديث بصوت جهوري، راداً التحية بأحسن منها.

يبدأ إبراهيم سرحان بالاقتراب من الأمير الذي يحاول الابتسام، ثم ينتقل إلى المفتي، المبتسم أصلاً، فرئيس البلدية الذي تباغته اللقطة وهو يقطب في وجه أحدهم، فيبتسم بتكلف ظاهر.

كان إبراهيم سرحان قد أخذ لقطات عدة للأمير سعود في اللد، حين وصل إليها قادماً من القدس برفقة المفتي الأكبر.

ثمة عربة فخمة مزينة، يقودها حوذي أنيق، وثلاثة أحصنة نظيفة مرتبة، يبدو النشاط عليها، تنتظر عند مدخل المحطة.

يدعو رئيس البلدية الأمير والمفتي لكي يصطحباه إلى مبنى البلدية، ليقدم لهما واجبات الضيافة.

يركبون عربة «الترويكا»، فتعبر بهم شارع المحطة متجاوزة حي المنشية، وصولاً إلى حي ارشيد. ثم تنعطف يميناً عبر شارع بستروس، أو اسكندر عوض. عربات أخرى خلفهم، وسيارات قليلة.

تتوقف العربة في منتصف شارع بستروس. منظر السوق بواجهاته الزجاجية المقنطرة الفخمة، يغري الأمير بالنزول والتفرج على محلاته.

يستجيب رئيس البلدية على مضض لرغبة الأمير، فبحسب مخططه، كانت الجولة السياحية ستتبع الغداء. ولكن، لا مناص من تلبية رغبة الضيف الكبير.

تنفرج أسارير الأمير وهو يتجول بين المحلات. يدخل بعضها، ويغيب قليلاً ثم يخرج وقد حمل خادمه كيساً أو لفافة.

ثمة محلات للتحف والمشغولات الدمشقية، وأخرى للحلوى والبوظة، وفي الجهة المقابلة أستديو للتصوير، تمتلئ واجهته بالصور الفنية، وعلى مقربة منه محلات للألبسة الأوروبية والعربية، للقبعات والطرابيش، وحتى العقل والحطات بأنواعها وألوانها المختلفة، ومحلات للخياطة، وأخرى للأثاث، وللمعدات الكهربائية والميكانيكية.

كان سوق بستروس أشبه بخلية نحل، سرعان ما تجمعت حول الأمير والمفتي، فينتهزها رئيس البلدية المغتاظ مناسبة للتخلص من هذه الجولة الطارئة، وغير المخطط لها.

يتقدم عاصم بيك من المفتي، ويهمس في أذنه، فيهمس المفتي بدوره في أذن الأمير الذي يشير بدوره إلى خدمه بنقل الأغراض إلى عربتهم، ويهم هو بصعود عربة «الترويكا».

يخترقون شارع بستروس باتجاه ساحة السراي، ومن هناك، إلى سوق الدرهلي، ثم إلى شارع جمال باشا، حيث دار البلدية.

كان مبنى دار البلدية أفخم الأبنية التي مرّوا عليها، بأعمدته الرخامية الأربعة التي تزين المدخل.

يدعوهم عاصم بيك إلى مكتبه، لتقديم واجبات الضيافة، فيما يعطي توجيهاته للعربة الثانية التي تخص خدم الأمير بنقل الحقائب إلى فندق «كليف هوتيل»، في حي العجمي.

يتناولون غداءهم في مطعم الفندق الفخم، ويصلّون العصر في جامع البحر. ثم يتابعون جولتهم السياحية في حي النزهة والمدينة القديمة والميناء. يمرّون قرب سوق الخضار. يتجولون في شارع جمال باشا، وشارع الهباب، وشارع عبد الرؤوف البيطار. وفي المساء يلتقون، بين صلاتي المغرب والعشاء، في جامع يافا الكبير في ساحة السراي، مع حشد كبير من أبناء المدينة.

يعتلي المفتي الأكبر المنبر. يلقي خطبة تبكي الحاضرين. على مصير مظلم ينتظر أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى النبي، صلى الله عليه وسلم، ومهد السيد المسيح، عليه السلام.

يغادر إبراهيم سرحان إلى الأستديو مسرعاً، بعد أن اطمأنَّ إلى أن الأمير مضى إلى الفندق، بعد يوم حافل وشاق.

سيقضي الليل في غرفته المعتمة التي يسميها الأستديو، وهو يظهّر السالب ويطبع نسخة موجبة.

عند خيوط الفجر الأولى، سينتهي من طباعة النسخة الثانية التي سيقدمها للأمير. سيستعرضها بالعدسة المكبرة وضوء المصباح، قبل أن يقفل عليها العلبة، وينام مبتسماً معجباً بما صنع.

يافا، 14 آب 1935

يدخل الأمير سعود، يرافقه المفتي ورئيس البلدية، إلى صالة سينما الحمراء.. يجلسون في الصف الأول.

ثمة مدعوون آخرون من أعيان المدينة، لكن العدد الأكبر كان من الفضوليين الذين رأوا موكب الأمير والمفتي، فقرروا الانضمام إلى الحدث.

كان إبراهيم سرحان قد حضر منذ الصباح إلى مكتب عاصم بيك السعيد، وأخبره أن زيارة الأمير أصبحت فيلماً جاهزاً للعرض، وأنه يقترح سينما أمبير.

لم يصدق عاصم بيك، حتى رأى العلبة بعينيه، فاصطحب إبراهيم إلى سينما الحمراء المجاورة لدار البلدية في شارع جمال باشا، فهي أرقى وأكثر اتساعاً.. ثم هرع مسرعاً إلى فندق «كليف هوتيل»، وقابل المفتي وشرح له الأمر، واقترح عليه أن يتضمن برنامج الزيارة في اليوم الثاني زيارة سينما الحمراء ومشاهدة الفيلم.

وافق المفتي، وأحاط الوفد السعودي بالتعديل الطارئ على البرنامج، كان هذا التعديل مفاجأة سعيدة للمفتي ولرئيس البلدية معاً، على الرغم من خلافهما العميق في السياسة، والتحفظ الكبير في التعامل! فهو يعبر عن

السبق الحضاري الذي كان الفلسطينيون يتمتعون به، مقارنة بأشقائهم العرب في الجزيرة وغيرها.

يبدأ عرض الفيلم بلقطة صعود الأمير والمفتي وصحبهم إلى القطار في محطة اللد، ثم وصولهم إلى يافا، ثم باقي المشاهد التي تنتهي في جامع المحمودية الكبير.

تُضاء الصالة بعد توقف الفيلم، فيعلو التصفيق بحرارة، وترتسم ملامح الإعجاب والدهشة على وجوه الجميع، فيتقدم إبراهيم سرحان، في هذه اللحظة، من الأمير والمفتي، بعلبة فيها نسخة من الفيلم.

يفاجأ الأمير بالعلبة. لا يعرف ماهيتها، فيشرح إبراهيم سرحان الأمر للأمير والمفتي معاً:

- هذه نسخة من الفيلم هدية لسمو الأمير، يستطيع أن يحتفظ بها للذكرى.

يأخذ الأمير العلبة ويعطيها لمرافقه، ويخرج من جيبه حفنة من النقود الذهبية ويعطيها لإبراهيم الذي يأخذ النقود بوجل، وملامح الإرهاق بادية عليه، فيربت المفتي على كتفه، ثم يصافحه بحرارة وينقده مبلغاً إضافياً، وهو يردد عبارات المجاملة والشكر، ويمضي صحبة الأمير باتجاه باب الصالة، وسط تصفيق الحاضرين.

ينتظر إبراهيم خروج الجميع من الصالة. يأخذ نسخة العرض، ويغادر المكان.

وفيما هو ماض إلى بيته ليتابع نومه بعمق، يواصل الأمير والمفتي وصحبهم برنامج اليوم الثاني، بزيارة المدرسة الثانوية الأميرية.

ليست هذه الثانوية النموذجية بعيدة عن السينما ودار البلدية. عليهم أن يسيروا بعربة الترويكا قليلاً باتجاه الجنوب، ليصلوا إلى حي النزهة المطل على تلة العرقتنجي من جهة الغرب، وعلى بيارات البرتقال من جهة الجنوب.

تدخل العربة بالأمير والمفتي ورئيس البلدية إلى داخل سور المدرسة. في الجهة المقابلة، مدرسة مكتوب عليها بخط جميل: مدرسة الزهراء للبنات. هي مغلقة في هذا الوقت من السنة.

ثمة شرفة طويلة عريضة، في منتصفها من الداخل باب يفضي إلى مبنى الإدارة وغرف المدرسين.

تشرف هذه الشرفة، ذات الأعمدة الحجرية البيضاء، والتي تستخدم في إلقاء الخطب والتوجيهات، على حديقة مكشوفة مكسوة بالعشب وبعض الشجيرات والزهور.

على الشرفة، يصطف رئيس البلدية والأمير والمفتي، وإلى جانبهم وخلفهم أعيان المدينة وطاقم المدرسين، وتحت الشرفة يصطف أعضاء فرقة الكشافة بلباسهم المميز بالغُتَر البيضاء والعُقُل السوداء الرفيعة، تمييزاً لأنفسهم عن أزياء فرق كشافة المدارس التبشيرية والعلمانية، المنتشرة بكثافة في المدينة.

كان أعضاء هذه الفرقة يرتدون في سنوات العشرينيات قبعات أسطوانية عريضة، تشبه القلبق التركي، أما الآن، فمع تنامي المشاعر القومية، قرروا ارتداء الغُتَر والعقل العربية.

كالعادة، يطلب المصور من الحاضرين الثبات في أماكنهم، ريثما يلتقط الصورة. وبعد دقيقة من الصمت والثبات، يعلن المصور الأرمني، الخواجا آغوب، انتهاء أخذ اللقطة، فينفض الجمع، وتنفرج الأسارير.

المدارس في هذا الوقت من السنة في عطلتها الصيفية، لا طلاب فيها إلا أعضاء الفرقة الكشفية. عدد من هؤلاء أنهى دراسته وحصل على الثانوية العامة. وبعضهم سوف يكون بعد أسابيع في القاعات الجامعية، في دمشق وبيروت والقاهرة، وربما في أوروبا وأميركا. وآخرون، وهم الغالبية، سوف يكتفون بنصيبهم هذا من التعليم، وسينخرطون في سوق العمل، معلمين أو موظفين في الدوائر الحكومية.

يدخل الأمير والمفتي وصحبهم إلى مسرح المدرسة، يأخذون أماكنهم المحددة سلفاً.

تقدم فرقة الكشافة التي يرأسها محمد صالح الكيالي، الطالب في الصف الحادي عشر، عرضاً مسرحياً يجسد الصراع مع الصليبيين.

يؤدي الكيالي دور صلاح الدين، ويؤدي جميل الدجاني دور ريتشارد قلب الأسد، كما يقدمهما عريف الحفل.

يدور حوار صاخب بين الشابين، يصل إلى مبارزة بالسيف والترس، ثم إلى مصارعة حرة حقيقية، تحسم نتيجتها عضلات الشاب الممثل، وليس السيناريو المعد سلفاً. فمن الممكن أن يفوز صلاح الدين أو ريتشارد، حسب قوة اللاعب، وإتقانه هذا النوع من القتال الفردي.

بعد جهد عضلي كبير، يفوز صالح على جميل، وسط تصفيق الحاضرين وحماستهم.

يثير العرض دهشة الأمير وإعجابه، فيصعد إلى الخشبة لتحية أعضاء الفرقة وتقديم هدية لهم، وللثناء على إدارة المدرسة.. فينتهز المصورون صعود الأمير، ليلتقطوا له صوراً عدة، مع الطلاب.

بعد الغداء في مطعم الفندق، سيتابع الوفد طريقه في القطار إلى مدينة طولكرم. سيبهرهم الطريق ببياراته المنتشرة على مد النظر. وسيلتقون هناك بشاعر شاب من قرية عنبتا اسمه عبد الرحيم محمود. سيستقبل الأمير بقصيدة، سوف تُبكي كل من يسمعها:

نَجمُ السُعودِ وَفي جَبينِكَ مَطلَعُهْ	أَنّى تَوَجَّهَ رَكبُ عِزِّكَ يَتبَعُهْ
سَهلاً وَطِئتَ وَلَو نَزَلتَ بِمَحمَلٍ	يَوماً لِأَمرَعَ مِن نُزولِكَ بَلقَعُهْ
وَالقَومُ قَومُكَ يا أَميرُ إِذا النّوى	فَرَقَتهُ آمالُ العُروبَةِ تَجمَعُهْ
مالوا إِلَيكَ وَكُلُّ قَلبٍ حَبَّةً	يَحدو بِهِ شَوقاً إِلَيكَ وَيَدفَعُهْ
يا ذا الأَميرُ أَمامَ عَينِكَ شاعِرٌ	ضُمَّت عَلى الشَكوى المَريرَةِ أَضلُعُهْ
المَسجِدُ الأَقصى أجئتَ تَزورُهُ	أَم جِئتَ مِن قَبلِ الضَياعِ تُوَدِّعُهْ

سينهض الأمير بعد سماعه القصيدة، والدموع تترقق في عينه، وسيقول بصوته الجهوري للحاضرين:

– لا والله لن نودع فلسطين وفينا عرق عربي واحد ينبض!

قبل عام، في أثناء ترؤسه وفد الصلح بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية، دعا المفتي الملك عبد العزيز لزيارة القدس وفلسطين، لكن اعتلال صحته منعه من تلبية الدعوة، فأوفد ولي عهده الأمير سعود بدلاً عنه.

القدس، 17 تموز 1937

تطوق قوة من الشرطة البريطانية دار اللجنة العربية العليا في حي الشيخ جراح، خارج أسوار المدينة القديمة، إلى الجهة الشمالية الشرقية منها.

تلقّى الضابطان في دائرة التحريات الجنائية ركز وفيتزجيرالد، معلومات مؤكدة أن جميع أعضاء اللجنة مجتمعون برئاسة المفتي.. أحمد حلمي باشا، وألفرد روك، وراغب النشاشيبي، وجمال الحسيني، ويعقوب الغصين، وعبد اللطيف الصلاح، وحسين الخالدي، وعوني عبد الهادي، والفرصة سانحة لاعتقالهم جميعاً مرة واحدة، وعلى رأسهم «سماحته»!.

تسد القوة كل منافذ المدينة، وتقطع خطوط الهاتف، ثم تقتحم الدار، فلا تجد أحداً. اختفى الجميع.

على مسافة قريبة، ثمة مصفحة عسكرية إلى جانب سيارة الضابطين البريطانيين، تنتظر الخبر السار، لاقتياد المفتي وصحبه جميعاً مخفورين إلى ميناء حيفا، حيث ينتظرهم الطراد البريطاني «ريبالس»، الجاهز لنقلهم من هناك مكبلين بالسلاسل، منفيين إلى جزيرة موريشيوس في المحيط الهندي.

كانت الصحافة البريطانية قد مهدت لعملية الاقتحام هذه، بمقال في جريدة «التايمز» اللندنية، قبل يوم فقط، ذكرت فيه أن المفتي هو العقبة الكؤود، في وجه أي حل أو تفاهم مع اليهود، وأن استمرار حضوره في

المشهد السياسي يمنع أي شخصيات معتدلة، يمكن التفاهم معها من الظهور. ولذلك، لا بدَّ من إزاحته من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وعلى بريطانيا العظمى أن تبطش به وبالفريق المتصلب.

لم يشفع له أنه، قبل أقل من عام، استجاب لنداء الملوك العرب، عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، والإمام يحيى حميد الدين ملك اليمن، وغازي بن فيصل ملك العراق، وعبد الله بن الحسين أمير إمارة شرقي الأردن، عندما أرسلوا له رسالة ممهورة بتواقيعهم، جميعاً، يعدونه فيها بتحقيق مطالب المجاهدين والمضربين! وكيف استخدم نفوذه في وقف الإضراب الكبير الذي شلّ فلسطين، من أقصاها إلى أقصاها ستة شهور متتالية.

يخرج المفتي متخفياً بزي عجوز بدوي، في اللحظة نفسها التي يُحكم رجال الشرطة الطوق حول المكان.

يتوجه تحت جنح الظلام إلى باب الساهرة.

يدخل إلى المدينة القديمة، ويسرع إلى منزله المشرف على حائط البراق في الجدار الغربي للمدينة، والواقع مدخله بين أروقة المسجد الأقصى.

هنا يتحصن المجاهدون بالبنادق والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية، مستعدين لصدّ أي هجوم على المسجد، أو على بيت المفتي.

في المسجد الأقصى، أيضاً، رجال حماية مدربون ومسلحون من بلاد الأفغان، وبلاد البشناق وبلاد المغرب الكبير.. كانت أخبار تهديدات بيت المقدس والمسجد الأقصى تصل إلى زعماء هذه البلدان ومشايخها عن طريق مؤتمر العالم الإسلامي الذي عقد أول اجتماعاته في القدس، قبل سنوات خمس، وانتخب المفتي رئيساً له.

يافا، 13 تشرين الأول 1937

تصل سيارة المفتي إلى يافا بسلام، بعد أن تجاوزت الحواجز البريطانية كلها. فالمفتي يجيد التنكر، وها هو يظهر لرجال الشرطة المحيطين بمدينة القدس، بزي بدوي مهلهل.

ثلاثة شهور مضت من الحصار الخانق. ولا بريد ولا هاتف ولا كهرباء.

في الفترة الماضية، عثر رجال المفتي على مجموعة من الجواسيس، كان أحدهم يقف أمام باب المسجد بلباس مهلهل، يتسوّل النقود من المصلين، وآخر داخل المسجد، وثالث يقرأ البخت في الحارات والأزقة.

وأخيراً، أحضرت السلطات البريطانية قوة من مسلمي الهند، لاقتحام المسجد وبيت المفتي، والقبض عليه، مهما كلّف الثمن.

كانت أخبار القوة الهندية قد وصلت إلى المفتي، عن طريق أحد أفراد حمايته الأفغان. كان الأفغاني قد تعرف على جندي هندي من إثنية البشتون، مشارك في العملية، أسرَّ له بكامل تفاصيلها، وطلب منه إيصال الخبر إلى المفتي، فقرر عندها، وعندها فقط، الرحيل إلى دمشق.

لم يكن ثمة سبيل للخروج من أبواب المدينة القديمة، فالحراسة غاية في الإحكام، وتكاد دقة التفتيش لا تستثني حتى الرضيع. وعيون الجواسيس تجوس المكان، جيئة وذهاباً، وتتفرس في كل الوجوه.

لا بدّ إذن من الفرار تحت جنح الظلام. لا بدّ من التخفّي والبحث عن طريقة لا تلفت نظر أحد. بحث الأمر مع أخص رجاله، عارف الجاعوني، فأشار عليه بتسلق سور المدينة، والهبوط منه إلى الخارج .. وهكذا كان.

رُبط حبل متين في أعلى السور الجنوبي للمسجد، وهبط المفتي المتخفّي من ارتفاع عشرين متراً، في حاكورة عارف الجاعوني، الملاصقة للسور، بينما كان عارف منشغلاً بمراقبة دوريات الإنكليز الرائحة الغادية.

يخرج المفتي والجاعوني بعد خلو الطريق من الجنود إلى وادي الربابة، فالحي العربي.

كان الجاعوني قد اتفق مع سيارة، أُعدت إعداداً خاصاً، لنقل المفتي إلى ميناء يافا.

تمضي السيارة في طريق يافا، متجاوزة كل الحواجز غربي المدينة، إلى قرية أبو غوش، بعدها، تنحرف قليلاً باتجاه الشمال الغربي، مروراً بالرملة، تمر، بعدها، في قرية بيت دجن، حيث تتقاطع مع طريق غزة ـــــ حيفا عند الدوار، ثم تتجه إلى اللد فيافا.

ينزل المفتي في بيت على شاطئ البحر بين المنشية وارشيد، يملكه صديقه، يوسف ضيا الدجاني، والذي كان قد اتفق مع المفتي على أن يعد له زورقاً بخاريا لنقله إلى بيروت.

يرتاب الجنود الإنكليز في أمر الزورق، فيحتجزونه، ظانين أن على متنه شحنة من المهربات.

لكن، لا بأس، ثمة خطة بديلة. إنه قارب شراعي لبحار اسمه يوسف اللوح، يعمل في الخفاء مع المجاهدين.

في اللحظة نفسها التي صعد فيها المفتي إلى القارب، كان إبراهيم سرحان يغلق باب الدكان ـ الأستديو، الواقع في سوق الدير، قرب ساحة السراي.

يمضي، متعباً، إلى بيته في حي ارشيد، ليغط في نوم عميق بعد يوم شاق، أمضاه واقفاً على قدميه في ساحة القشلة، وهو يلتقط صوراً شخصية، بآلته المائية هذه، لعشرات الشبان الراغبين باستخراج بطاقات الهوية وجوازات السفر.

عملية إعداد البلورات الحساسة، كانت تأخذ منه بعض الوقت، لكنه كان يأخذ معظم وقته في تصوير الزبائن المستعجلين.

قبل سنوات خمس، مات والده بسكتة قلبية، وهو يصلح سراج زيت في دكانه هذا.

لم يكن يحب مهنة السمكرة، مهنة والده المقيتة، كان يكره اتساخ ثيابه ورائحة الزيت والكيروسين المنبعثة منه، فحوّل الدكان إلى أستديو للتصوير الضوئي.. صحيح أن بعض زبائنه كان يتلقطهم من الشارع، وكان يُمضي، في بعض الأحيان، ساعات إلى جانب صندوقه الخشبي، المنصوب على قوائم ثلاث، متنقلاً معه بين مساحات الظل المتغيرة، لكن الصحيح أيضاً أنه كان يجد متسعاً من الوقت لمزاولة هوايته الأثيرة.. التصوير السينمائي.

يسير متعباً في شارع إسكندر عوض. يتذكّر كيف سعى والده إلى أن يجعل منه سمكرياً طوال سنوات حياته، وكيف كان يهرب من المنزل ويغيب أياماً.. ينام في سينما فاروق، حيث عمل عارضاً مساعداً، يبدل بكرات الأفلام بين آلات العرض الثلاث.

كانت السينما أشبه بحلم لذيذ لا ينتهي، هالة سحرية، وعالم جميل مشرق لا يشبه بؤس الواقع.

أصبحت متعته الأثيرة السهر على اللقطات المقصوصة من الأفلام، ورؤية تتابع كوادرها. كان يقضي ساعاتٍ طوالاً، وهو يتأمل تغيرات المشاهد، كادراً كادراً، بعدسته المكبرة.

سوف يقول لنفسه بعد أربعين عاماً، عندما يقوده مصيره الأعمى إلى أن يفتح دكاناً للسمكرة في مخيم شاتيلا، ألهذا الحد نحن أسرى أقدارنا؟! ألهذا الحد نحن مسيرون غير قادرين على المضي في خياراتنا؟

سوف يستعرض تجربته السينمائية الفاشلة، المليئة بالهزائم والأحلام الكبيرة العصية على التحقق.. كم من مشروع فيلم لم يتحقق، وكم من فكرة لم تتبلور، وكم تجمع فني انفضّ عند لحظة الحقيقة.

سيقول لنفسه، وهو مضطجع على أريكته، يشرب الشاي، ويتابع فيلماً قديماً لعبد الوهاب على تلفزيون لبنان، كم من السنوات على المرء أن يضيّع في مملكة الوهم، حتى يدرك أن قدره هو قدره المحتوم، والذي رآه والده قبل خمسين سنة، وأراد أن يوفر عليه كل هذا العناء.. ولد سمكرياً وسيموت سمكرياً؟

يصل إلى منتصف الشارع، المحلات بدأت بالإغلاق. يتوقف قليلاً أمام وكالة بريموس لبوابير الكاز.. يتأمل أحجام البوابير، ولونها النحاسي البراق، منها الكبير والمتوسط والصغير. ثمة قسم لقطع الغيار، القالات، والرؤوس، والمناصب، والنكاشات.

يبتسم وهو يتذكر تلك الأيام. كان يمكن له أن يكوّن ثروة لو أنه استغلَّ ثورة البوابير التي اكتسحت يافا قبل سنوات عشر.. كانت بوابير الكاز أشبه بحمّى اجتاحت العالم، وكان والده يلحّ عليه بأن يفتتح قسماً في دكانه لبيع هذه الآلة العجيبة التي قلبت حياة الناس.

يضحك وهو يتذكر تلك الأيام، حين كان بابور الكاز أحد شروط جهاز العروس.

يصل إلى نهاية الشارع. ينعطف يساراً إلى الشارع الذي يقوده إلى منزله. لديه عمل طويل في غرفة الأستديو.. لا بدّ أن يكمل معاينة ما تبقّى من مشاهد فيلمه «أحلام تحققت»، فالكثير من اللقطات التي صورها لا تصلح.. أفسدها خيط ضوء تسرّب إلى الغرفة المظلمة للكاميرا.

يمر من أمام مسجد ارشيد، ثمة مصلّون يغادرون بعد صلاة العشاء، يلقي عليهم السلام، فيردّون بتحفظ وهم يرمقونه بنظرات استنكار.. بعضهم من أصدقاء والده.

يافا، 7 تموز 1938

أخيراً، انتهى إبراهيم سرحان من تصنيع الموفيولا الخاصة به، أمضى زمناً ليس قصيراً، وهو يبحث القطع الملائمة ويرسمها ويقيسها ويخرطها.

لم يكن يملك نقوداً كافية لشرائها، 1000 جنيه استرليني، مبلغ كبير جداً عليه، بل هو ثروة لا يحلم أن يدخرها طوال حياته.

شاهد صورة الموفيولا للمرة الأولى؛ في نشرة دعائية لشركة أميركية، تصنع معدات التصوير.

سأل عنها فشرح له مندوب الشركة وظيفتها، وزوّده بصورة عن مخطط، يوضح قطعها قطعة قطعة.

لم يصدّق يومها أن تتوفر آلة تمكّنه من رؤية المشاهد التي يصورها.

كان هذا الهاجس يلحّ عليه كلما صور علبة وقام بتظهيرها. لم تكن ثمة طريقة يمكن من خلالها رؤية المشاهد قبل المونتاج والتقطيع. كانت معاينة اللقطات بالعدسة المكبرة، لقطة لقطة، أشبه بعذاب لا فكاك منه.

بعد أن تأمل المخطط جيداً، وتفحص أقسام الموفيولا وقطعها، قرر أن يصنع واحدة بنفسه، مهما كلّفه الأمر من جهد ووقت!

في البداية، صمم طاولة خشبية بمقاسات محددة، تتسع لكل القطع التي جمعها من المعدات التالفة، أو التي لفّقها من وحي المخطط. حاول أن

يستخدم البكرات الخاصة بآلات العرض، غير أنه اكتشف عدم عمليتها، فهو يحتاج إلى بكرة من نوع خاص، يسهل معها وضع الفيلم ونزعه. لذلك، صمم عدة بكرات خشبية، ركّز في محورها إبزيماً من الحديد لتدوير البكرة الرئيسة، ثم اختار مكاناً مناسباً ومخفياً لمحرك كهربائي مستعمل من آلة عرض تالفة، أعاد تأهيله، فأصبح جاهزاً للعمل.

ثبت البكرات بقضبان معدنية انتقاها بنفسه، وقاس أبعادها بعناية كبيرة، وخرطها ثم طلاها بدهان معدني، لكي يحميها من الصدأ، وربطها بالبكرة الرئيسة عن طريق المسننات.

في وسط الطاولة، ألصق علبة خشبية لها مدخل ومخرج يسمحان للفيلم بالتحرك، بعد أن ركَّب في داخلها أسطوانات معدنية ومسننات ومثقبات بطريقة معينة، تساعد على دوران الفيلم بسهولة. وفي أعلى العلبة، أحدث فتحة بحجم كادر اللقطة، ركّز في أسفلها مصباحاً من مصابيح آلات العرض الصغيرة.

للسمكرة أيضاً فوائد سينمائية!

يضحك من كل قلبه، وهو يربط بين السمكرة والسينما.. هو أول من جمع بين المهنتين!

كان الهدف أن يمرر عبر هذه العلبة، النسخة الموجبة، المفترض أن تنعكس على مرآة مثبتة أعلى العلبة الخشبية بميلان يبلغ 90 درجة، موجهة إلى لوحة خشبية قائمة أمام العلبة، صقيلة ومطلية باللون الأبيض، يفترض أن تنعكس عليها حركة الفيلم.

يبدأ تجريب الآلة بفيلم صوره قبل أيام، في شارع بستروس.

بعد دورات عدة، تتضح المشاهد أكثر فأكثر، واللقطات تظهر بشكل مهتز، ثم لا تلبث أن تغيب قليلاً مظهرة نصف الكوادر.

كان يعرف هذه المشكلة، وهي تحصل أحيانا مع آلات العرض في صالات السينما.

يواصل عمليات التجريب والضبط طوال الليل. ومع بزوغ الفجر، ينجح في رؤية المشاهد التي صوّرها بوضوح أكبر.

يتأمل معجباً ما صنعت يداه.. لماذا أسموها موفيولا؟ لماذا لا يسمونها آلة الزمن؟

ها هو ينطلق من اللحظة التي أوقف الآلة عندها، إلى نهاية المشهد، وها هو يعود إلى البداية، حسب رغبته.

في أفلام القصص الطويلة التي بدأ يفكر بإخراجها، سوف يلعب لعبة الزمن بشكل جديد.. سيبدأ من مشهد النهاية ويعود إلى القصة من بدايتها، ليوضح كيف حصلت هذه النهاية.. وقد يقف في المنتصف، ثم يذهب إلى النهاية بشكل مباشر، ثم يعود بعدها إلى البداية.

تخيل كم هو حجم الإثارة، عندما يرى الجمهور النهاية، ولا يعرف ملابسات القصة.. كم سيتشبثون بكراسيهم، حتى يعرفوا تفاصيل ما جرى وأسبابه؟

راقت له لعبة الزمن هذه.. ستفتح أمامه آفاق وأفكار كثيرة.

يكاد يُغمى عليه من التعب.

ينهض سعيداً، ويلقي بنفسه على السرير المعدني الملاصق لطاولة الموفيولا.. يطفئ الضوء.. ينام بعمق.

باريس، 1 شباط 1939

ما إن يخرج محمد صالح الكيالي، برفقة صديقته ماريز، من سينما لوشامبو، في باريس الخامسة، حتى يشعل لفافة الجيتان ويدخنها بشراهة.

ملامح الضيق تبدو عليه؛ وهو يسير ساهماً غير عابئ بمن معه.

أمطار خفيفة أشبه بالرذاذ، وأضواء الشارع الخافتة، تعطي للجو شاعرية مضاعفة.

تحاول ماريز أن تستفزه:

- لم أكن أعلم أنَّ لي عينين جميلتين.

ينظر إليها مبتسماً:

- ألم أقل لك قبل عام، وحتى قبل أن يعرض فيلم «رصيف الضباب»: لديك عينان جميلتان، ولم تعبئي بذلك! بل قلت لي، وأنت تسخرين: للأبقار عيون جميلة أيضاً.. أما الآن، فلأن فرنسا كلها مشغولة بهذه العبارة السخيفة التي يقولها بطل الفيلم: «لديك عينان جميلتان، هل تعلمين ذلك؟»، بدأت تتحسسين جمال عينيك!

تنظر إليه، وهي تسبل عينيها، وكأنها تحلم:

- لكنه فيلم رائع، ينعش الروح، ويقوي الإحساس بالجمال.

يشيح بوجهه جانباً متجاهلاً عبارتها، فتلتفت نحوه بتحدٍّ:

- فيلم جميل أليس كذلك؟.. فيلم جميل؟

يستدير نحوها، ثم يمسك كتفيها برفق:

- لا أعرف ماذا تقصدين بقولك فيلم جميل، قصة حب، موت، أعذريني، فأنا غير قادر على إدراك الجمال في نوعية الأفلام هذه.

تكتسب ملامحها شيئاً من الجدية:

- ألم تلفت نظرك هذه الجرأة في اللقطات، في الإحساس الذي يتركه الضباب في الميناء، في لقطات الجنس، في القبل الصارخة. في المشاعر الصريحة، في مشية نيللي المتخففة من عبء أنوثتها.. ألم تلفت نظرك هذه السوريالية الحسية.

ينظر إلى الأعلى، محاولاً استرداد هدوئه:

- سوريالية، أي فكرة سخيفة بلا معنى تسمونها سوريالية، بالله عليك قولي لي؛ ماذا تعنين بقولك سوريالية حسية.. هل تستطيعين أن تفسريها لي؟

تزداد غزارة المطر، فيلمح، وهو ينعطف يميناً، ضوءًا يشير إلى بار عليه صورة فارس، وفوقها عبارة «بار الفارس»، يدعوها للدخول. تتردد قليلاً. تنظر إلى المطر الذي أصبح سقوطه أشبه بسلاسل فضية، ثم تدخل، فيتبعها.

يحتلان طاولة منزوية قليلاً.. ثمة عدد قليل من الزبائن رجال ونساء.. يجلس بعض الرجال إلى البار بصمت، وآخرون غارقون في أحاديث غير منتهية، وبعض آخر، يستمع باهتمام إلى أغنية إديت بياف المنبعثة من الفونوغراف: لا أعرف النهاية، «J n´en connais pas la fin».

- إذن، تريدني أن أشرح لك ما معنى السوريالية الحسية. نعم سأشرحها لك. هل تذكر فيلم «كلب أندلسي».

ينشغل بالنادل الذي حضر:

- أريد مارتيني

ثم يلتفت إليها:

- وأنت؟

- باستيس.

ينصرف النادل، فتستأنف حديثها:

- هل تذكر فيلم «كلب أندلسي»؟

- نعم نعم أذكر..

- هذه هي السوريالية الحسية، أي أن يترك الفيلم لديك مشاعر متناقضة، ويتركك أسير حيرتك، ويدفعك إلى الغوص بعيداً عن الحقيقة البصرية، ألم تلفت نظرك هذه التلقائية الفنية والنفسية، المبنية على الأفكار اللاشعورية والأحلام؟

يجرع كأس المارتيني، وهو يتأمل ماريز، المستغرقة في الشرح، وكأنها تردد عبارات لا تفهمها.

- عزيزتي ماريز، فيلم «كلب أندلسي» سخيف، ولن تقنعيني بالحديث عن اللاشعور والأحلام. السينما واقع، والواقع يجب أن يكون مباشراً وواضحاً وسهلاً، تماماً كما هي الحياة.. أنا أرى الأشياء كما هي، لا يهمني كيف أراها في الأحلام.. بالله عليك قولي لي ماذا يعني الربط بين الغيمة التي تقطع القمر وموسى الحلاقة التي تقطع العين؟.. ماذا يعني خروج النمل من الكف؟ ماذا يعني أن ينزع الرجل فمه من وجهه؟ ماذا يعني أن تزيني البيانو بجثث الحمير؟ ماذا يعني أن يحمل رجل في الشارع مكنسة هي يد بشرية يدفع بها الفضلات؟

يجرع كأساً ثانية من المارتيني، فيما تطرق ماريز صامتة، تتأمل لوحة على الجدار المقابل لها.

- هل تريدينني أن أحدثك عن فيلم «العصر الذهبي»؟ حسناً سأفعل.. من أين تودين أن أبدأ؟ من مشهد الخاتمة أم من مشهد البداية؟ هل تجدين ثمة فرقاً؟ لا أظن.. من مشهد البطارکة، وهم يقرأون الكتاب المقدس على الجبل الصخري مقابل الشاطئ، ثم تحولهم هياكل عظمية في نهاية الفيلم؟ أم من مشهد المسيح المتماهي مع الدوق بنلاغيس، بطل رواية ماركيز دو ساد؟

ترشف ماريز رشفة من كأس الباستيس، وتشعل سيكارة، محاولة استعادة المبادرة:

- لا تقل لي إن فيلم جان رينوار، «قواعد اللعبة»، أعجبك؟

يدرك الكيالي نبرة السخرية المبطنة في سؤالها، فيرسم ابتسامة على وجهه، وهو يجيبها بهدوء مصطنع:

- لا يعجبكم جان رينوار، فهو واقعي برجوازي متخلف..

ترشف رشفة أخرى، وتتابع بالنبرة نفسها:

- لا تنسَ أيضاً، وكوميدي مبتذل.

يتابع معها اللعبة نفسها:

- وأنصاره ومريدوه ليسوا فرنسيين، ولا ينتمون للثقافة الباريسية المعاصرة، إنهم من الإيطاليين الجهلة، المولعين بالواقعية، والذين يجسدون عملياً نظرية لومبروزو، وغير القادرين على إدراك نظريات فرويد..

تحاول إحراجه:

- أجبني فقط بنعم أو لا، هل تعتقد أن الكوميديا تصلح للسينما؟

- ماريز! أنا لست من أنصار رينوار، أنت تعرفين ذلك، ومع أنك تنظرين إليه كمهرج، أراه أكثر جدية وصدقاً من أصدقائك، لويس بونويل وسلفادور دالي، وحتى مارسيل كارنيه.

تنهض ماريز غاضبة:

- أتعبتني معك، أنت فعلاً واقعي يميني تقليدي متخلف، لا أمل فيك، لن تصبح مبدعاً! ستبقى مجرد مصور تقليدي تسجل سخافات الواقع.

تخرج ماريز من البار من دون أن تلتفت.. ينظر الجميع إليها وهي تفتح الباب بعصبية، ثم سرعان ما يعودون إلى ما كانوا فيه: إديت بياف، والكحول، والأحاديث غير المنتهية.

وهو يشرب كأسه الثالثة، يتذكر اللقاء الغريب الذي جمعه بها قبل أكثر من عام. كان خارجاً من السينما بصحبة صديقه وجاره، ميشيل كرم، غارقاً في عوالم فيلم شارلي شابلن «الأزمنة الحديثة».

لم يستيقظ من صدمة الفيلم، إلا عندما سمع صوتاً أنثوياً يطلب منه سيكارة. وتلقائياً، أخرج العلبة من جيبه وقدّمها للمرأة التي انتصبت أمامه، كانت تنظر إليه بشغف، وهي تأخذ السيكارة وتنتظر الشعلة.

تأملها قليلاً، وهو يشعل لها السيكارة، لفت نظره جمال عينيها المخضرّ، وصفاء وجهها، وشعرها الكستنائي الأجعد المهمل، والذي يكسبها ملامح فينوسية.

كان واضحاً أن شيئاً ما حصل في هذا اللقاء.. في حديث العيون.. في الرغبة بعدم المغادرة.. وقفا قليلاً وهما يدخنان لفافات الجيتان. رواد السينما تفرقوا جميعاً. نسي تماماً وجود ميشيل، اللائذ بصمته. مشى باتجاه نهر السين

وميشيل إلى يساره.. هي مشت إلى يمينه.. تحدثا طوال ساعتين، أو أكثر، عن الفيلم.. عن وحش الآلة.. عن المستقبل المظلم.

دعاهما ميشيل لتناول شيء ما، فالجوع بدأ يعضّهم. دخلوا مطعماً صغيراً فارغاً إلا من النادل. الساعة تجاوزت الثانية عشرة.

وهم يتناولون شرائح اللحم المشوية، عرفت مقدار ولعه بالسينما.. أخبرته أنها كانت تترقبه عند العرض الأول لأي فيلم جديد.

لم يتذكر أنه رآها من قبل. عرف أنها تدرس تاريخ الفن، وميشيل ماضٍ في صمته.

خرجوا إلى الشوارع يتابعون السير، كان الجو أقرب إلى البرودة.. ثمة قلة من العابرين الثملين. تذكر هو وميشيل، وبصوت مرتفع، أن باب العمارة التي يسكنان على سطحها يغلق عند الثانية عشرة ليلاً، فدعتهما، من دون تردد، للمبيت في غرفتها الواسعة، والقريبة.

صعدوا درجاً خشبياً طويلاً، بهدوء وعلى رؤوس الأصابع، كي لا يثيروا حفيظة الجيران.

كانت غرفتها واسعة حقاً، فيها مكتبة كبيرة ولوحات فنية غريبة، وسرير كبير يتوسط ذلك، وأريكة قرب النافذة العالية، وجهاز فونوغراف.

ألقى ميشيل جسده على الأريكة، فور دخوله، ومضى في نوم عميق. كان متعباً، وعليه أن يذهب إلى الجامعة مبكراً.

هي جلست على السرير بعد أن أحضرت زجاجة باستيس وكأسين كبيرين، وهو جلس على كرسي وثير مريح، واضح أنه مخصص للقراءة.. تبادلا الأنخاب والأحاديث، واستمعا إلى اسطوانات الموسيقى.

عند بزوغ خيوط الفجر الأولى، غادر ميشيل مسرعاً إلى جامعته، وهما غرقا في نوم عميق، لم يستيقظا منه إلاَّ عصراً. لم يفترقا طوال أسبوع. أصرت أن يبقى عندها. حاول أن يجاريها في فوضويتها، لكنه فشل، فعاد إلى غرفته. تعجب لقرب غرفتها من غرفته. لم يكن يفصل بينهما أكثر من شارعين فرعيين.

منذ عرفها، حاولت ماريز أن تشركه في جلسات أصدقائها اليومية في مقهى «لي دو ماغو». ذهب مرتين أو ثلاثاً، ثم استنكف. شعر بالملل من أحاديثهم المكرورة، والمليئة بالادعاء، والتغني بجنون الشخصيات المريضة وعبثها. رامبو وفيرلين، ولوتريامون، وأيقونتهم سلفادور دالي.

قبل أسابيع، أقنعها بأن ترافقه لمشاهدة فيلم «قواعد اللعبة»، فاقتنعت على مضض، كانت هي وجماعتها يكرهون جان رينوار وواقعيته. كان الفيلم مصوراً بعناية، وثمة جهد واضح في اختيار كوادره، التي ترقى إلى مستوى اللوحات الكلاسيكية.. تتحدث قصته عن مزيج هائل من الخيانات في أوساط الطبقة البرجوازية الفرنسية.. طيار مرتبط بعلاقة سرية مع سيدة من الطبقة الأرستقراطية.. يقيم زوج السيدة حفلة في قصره الريفي، ويدعو عشيق زوجته الطيار، ويدعو أيضا عشيقته هو للحفلة، وفي زحمة الخيانات ثمة خيانة أخرى داخل القصر، من طبقة الخدم، فامرأة رئيس الحراس تخونه مع أحد المدعوين للحفلة.

بعد الفيلم، قالت له ماريز:

- لماذا جعلتني أضيع وقتي في مشاهدة هذه السخافة، أعرفه، أعرف رينوار جيداً؟

حاول أن يقول لها إنه لا يحب المواقف المسبقة، والآراء الجاهزة، والأحكام القطعية.. لم تستمع. مضت غاضبة، إلى مقهى «لي دو ماغو» وأخبرت الجميع عن واقعية الفيلم الممجوجة، ونزعته الكوميدية المبتذلة التي تذكّر بمسرحيات «حلاق إشبيلية» و«زواج فيغارو»، فقاطعوه، وشنّوا حملة تشهير ضده.

قبل أعوام ثلاثة، أتى الكيالي إلى باريس، ليتعلم التصوير الضوئي والسينمائي. كانت فرنسا خياره الأول، كونه درس الفرنسية وتعلمها كلغة أُم، حتى نهاية المرحلة الإعدادية في مدرسة الفرير.

لم يُقبل في معهد السينما، لأنه فشل في فحص القبول، وأي فحص قبول؟! كان اختباراً بالشعر والفن التشكيلي والموسيقى.. اختباراً للحواس.. اختباراً في كل شيء إلا السينما.. سافر إلى بروكسل، بحثاً عن فرصة أخرى للدراسة الأكاديمية، فاعترضته المشكلة نفسها. كان السوريواليون والدادائيون، وأتباعهم، من المولعين بالغرابة والتقليعات المستهجنة، يسيطرون على معاهد السينما والمسرح والفن التشكيلي في فرنسا وبلجيكا ذلك الوقت.

يقول لنفسه وهو يتمشى وحيداً على ضفة السين، عائداً من لقاء ماريز المفصلي: هؤلاء الفرنسيون، كم هم مولعون بالثرثرة الفارغة المسخيفة، وبالتقليعات الشاذّة الغرائبية!

التحق بدورات مكثفة لتعلم التصوير، لم تكن ترضي نهمه.. واظب على حضور تصوير ما استطاع من الأفلام، راقب جميع العمليات الفنية، زار معامل التظهير والطبع، جلس إلى طاولات المونتاج، جلس إلى الموفيولا.. لكن ذلك كله لم يكن يكفي.. كان لا بد له أن ينتظم في دراسة أكاديمية

يحصل في نهايتها على دبلوم.. وهذا لن يحصل إن بقي في باريس، يحصي الأيام والأسابيع والشهور، متأرجحاً بين سرير غرفته، وسرير غرفة ماريز!

ربما نبهه حديثها المليء بالأفكار المفككة، وانسحابها غاضبة، إلى حقيقة، تناساها منذ مدة طويلة.. لا بد أن يعود إلى يافا، وبأسرع وقت ممكن.

وهو يحزم حقائبه، في غرفته الصغيرة القابعة على سطح عمارة في باريس الخامسة، سيتفق مع جاره ميشيل، العائد هو الآخر إلى بيروت مهندساً، على تأسيس شركة صغيرة للأفلام الوثائقية.. سوف يزوده ميشيل بالكاميرا والمعدات، وسيقوم هو بالعمليات الفنية كافة، من التصوير إلى المونتاج.

بيروت، زوق مكايل، 13 تشرين الأول 1939

يجلس المفتي على شرفة المنزل، يشرب الشاي، ويتأمل لحظة الغروب.

تحجب غيوم كثيفة غروب الشمس في البحر. تشكيل الألوان يلفت نظره. ثمة مساحات من اللون الأحمر الناري، الملطخ بالأصفر الذهبي، المقطوع بتدرجات غير منتهية من الرمادي.

ينظر إلى ساعته، ثم يشرب ما تبقى في كأس الشاي. مع هبوط الظلام، سيغادر هذا المنزل إلى دمشق، فبغداد، وفق خطة رسمت بعناية، وأُجِّلت أكثر من مرة.

يستعيد شريط ذكرياته في هذا المكان.. بات مألوفاً لديه.. عامان كاملان لم يبرحه، إلاّ إلى أماكن قليلة، وتحت حراسة مشددة.

ينتبه فجأة إلى أنه غادر يافا قبل عامين بالتمام والكمال، في الثالث عشر من تشرين الأول في العام 1937.. لم يخطط للأمر، انتبه إليه الآن فقط. كان يفترض أن يهرب في الخامس من الشهر، أي قبل أسبوع، لكن دعوة إلى الغداء من وكيل وزارة خارجية المملكة العربية السعودية، فؤاد حمزة، في السادس من الشهر، أجَّلت الخطة أسبوعاً كاملاً.

يستعيد ركوبه أمواج البحر العاتية في تلك الليلة.. لم يستطع يوسف اللوح حينها، على الرغم من دربته في قيادة القوارب الشراعية، أن يقطع أكثر من أربعين كيلومترا في خمس عشرة ساعة.

يتذكّر وصولهم في الليل إلى شاطئ البياضة، قرب مدينة صور اللبنانية. وكيف توجهوا إليها، حين رأوا سيارة تقف على الطريق المحاذي للشاطئ، وهي توجه أنوارها إلى البحر. أدرك يومها هو وصحبه، أنها السيارة التي ستقلّهم إلى دمشق.

يستعيد تلك اللحظة الرهيبة، وغير السارَّة، ساعة فاجأهم زورق بخاري فرنسي مسلح، تابع لقوة خفر السواحل اللبنانية، حين اقترب قاربهم من الشاطئ، واقتادهم إلى صور. وكيف خابت آمال المحققين، لمّا شرعوا يستنطقونهم، إذ لم يوفقوا بالقبض على المهربين الذين كانوا بانتظارهم.

يومها، رفض أن يُعرِّف الفرنسيين واللبنانيين بشخصه.. أخبرهم أن اسمه محمد الجعفري.. لكن، وعلى غير العادة، وصل مساعد مدير الأمن العام الفرنسي، واصطحبه بسيارته إلى بيروت.. ومباشرة، إلى مكتب المسيو كولومباني، مدير الأمن العام، الذي نهض وصافحه مبتسماً لحظة دخوله إليه، وقال بثقة عالية:

- أهلاً بك في لبنان سماحة المفتي الأكبر، كنت بانتظارك منذ يومين. كيف كانت رحلتك من يافا؟

لا يزال يحتفظ باللباس البدوي المهلهل نفسه. سيستخدمه اليوم مجدداً في هروبه، على الرغم من كل شيء.

يتأمل العباءة السوداء والحطة الحمراء والعقال والنظارة السوداء.

بعد قليل، سيرتدي ذلك كله، ويعود إلى لعبة الهروب والتخفي التي كان يتقنها مذ كان ضابطاً في الجيش العثماني، في أثناء الحرب الأولى.

يعود إلى الشرفة، مستعيداً تلك الأيام التي تلت فراره من فلسطين، عندما مكث في منزل رئيس المجلس الإسلامي، الدكتور سامح الفاخوري، تحت حراسة فرنسية مشددة من خارج المنزل ومن داخله.. كان الضباط الفرنسيون يقيمون في الغرف المجاورة لغرفة نومه.

يستعيد ضغوط الفرنسيين عليه لقبول السفر، أو النفي، إلى فرنسا، وإصراره على الرفض. وكيف نظم الوطنيون في بيروت مظاهرة، تستنكر محاولات السلطة الفرنسية المشبوهة.

قبل أن تثمر هذه الضغوط، وتسمح فرنسا له بالإقامة في لبنان تحت الحراسة، فكّر بالهروب منهم مرة ثانية، وأعدّ العدة للهبوط بالحبل من شرفة المنزل في الطابق الثالث، بمساعدة الجاعوني نفسه، صاحب خطة الهروب من القدس.

كانت الخطة الجديدة على وشك التنفيذ؛ حين جاءه ضابط فرنسي يبلغه قرار المندوب السامي الكونت دو مارتيل، أن لا يرغمه على السفر إلى فرنسا، شرط البقاء في هذه القرية، الواقعة على مسيرة ثمانية عشر كيلومترا إلى الشمال من بيروت، تحت الحراسة المشددة.

ينظر إلى ساعته، لم يبق على موعد الهروب إلاّ نصف ساعة.

لم ينقطع الزوار عنه يوماً واحداً، زعماء وطنيون من لبنان وسوريا والعراق، والأكثر منهم قادة المجاهدين في فلسطين، والذين كثفوا من أنشطتهم المسلحة بإيعاز وتخطيط ودعم منه. كان يدير العمليات، من هنا من قرية الزوق.. لذلك، لم يكن البريطانيون بعيدين عنه في أي يوم، كان

يشعر بهم يحيطون به من كل جانب. مرّة يرسلون أحدهم ليحاول اغتياله، ومرة أخرى يضغطون على فرنسا لتسليمه ونفيه إلى إحدى جزر سيشيل.

قبل أسابيع، وفيما هو نائم في بيته الصيفي في قرنايل، حاصرته قوة فرنسية. ولولا الحراسة المشددة من المجاهدين الفلسطينيين والأفغان، لدخلوا إلى غرفة نومه.

لم يغادروا في تلك الليلة حتى رأوه أمامهم، وتأكدوا بعيونهم أن خبر فراره مجرد شائعة ليس إلاّ.

لم تعد الإقامة في بيروت آمنة منذ وقت طويل. بدأت المضايقات الفرنسية تأخذ أبعاداً خطيرة، فالضغوط البريطانية المستمرة على فرنسا، والمستندة حديثاً، إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، أثمرت قراراً صعباً اتخذته باريس لصالح حليفتها «الجديدة» لندن.

قررت فرنسا، أخيراً؛ وضع حد لتغاضيها «الخجول» عن أنشطة المفتي، فأعدت معتقلاً في واحة تدمر وسط بادية الشام، لقادة المجاهدين. وبالفعل، اعتقلت عدداً منهم وأودعتهم فيه، وأعدّت معتقلا آخر في بكفيا، غربي بيروت، للسياسيين، وشدّدت الحراسة على المفتي في مكان إقامته، وأخذت تنتظر الفرصة الملائمة لتلبية طلب الإنجليز بتسليمه.. لهذا، كانت خطة هروب مزدوجة، خطّط لها بعناية وتكتم شديدين.. لقادة المجاهدين والسياسيين الذين مكثوا بالقرب منه في زوق مكايل أولاً، وله ثانياً.

نجحت خطة تهريب القادة إلى دمشق وبغداد ومكة والرياض، من دون أن تثير انتباه الفرنسيين والبريطانيين، وبقي هروبه الخاتمة السعيدة التي ينتظرها الجميع.

إنها السابعة تماماً..

يرتدي المفتي الزي البدوي المهلهل، يحضر أحد رجاله الخلّص، ويخرج معه من الباب، فيما حرسه يشاغلون الحرس الفرنسي بتقديم العشاء لهم.

يبتعد المفتي أكثر فأكثر عن البيت. يلقي عليه نظرة أخيرة، قبل أن يصعد طريقاً جبلياً وعراً.. لا شيء غير اعتيادي، أضواء الطابق الثاني كما تركها.. في غرفة النوم ضوء خافت، وفي غرفة الصالون ضوء قوي، يوحي بأنه لا يزال عامراً بقاطنيه.

ثمة سيارة مطفأة الأنوار تنتظره. يقترب منها. يفتح السائق الناقذة، فيبادره المفتي بكلمة السرّ المتفق عليها، إسراء، فيردّ السائق من فوره، معراج.

يصعد المفتي ومرافقه.

تمضي السيارة في الطريق الجبلي الصاعد.

بعد سنوات طويلة، سيتذكّر المفتي وهو يقضي سنواته الأخيرة في بيروت، تلك اللحظات الرهيبة التي رافقت هروبه عبر الحدود إلى دمشق. وسيتساءل في قرارة نفسه، هل غض الفرنسيون الطرف عنه؟

سيتذكّر، أيضاً وأيضاً، رجلين من مدينة دير الزور. أولهما، محمود الطبال، السائق الذي نقله من دمشق إلى بغداد، ورفض بإصرار غريب تقاضي أي أجر لقاء مغامرته المجنونة هذه، والتي كادت أن تكلفه روحه، حين فتحت دورية فرنسية النار على السيارة لحظة اجتياز جسر تورا في دمشق، رافضاً التوقف والخضوع للتفتيش والمساءلة.. وثانيهما قائد جنود الصحراء السرجان صائل، الذي امتنع هو الآخر، بأنفة عن تقاضي رشوة كبيرة، عندما دخلوا إلى معسكره بالخطأ، ظانين أنه أحد مضارب البدو، مدعين أنهم تجار أغنام ضلوا طريقهم.

سيتذكر كيف أن هذه الحجة لم تنطل على السرجان صائل، فقرر ترحيلهم في الصباح مع قوة من الهجانة إلى تدمر، حيث مقر الضابط الفرنسي المسؤول عن المنطقة. سيتذكر طويلاً مروءة هذا الديري، وكيف أخلى سبيله، وسهّل له طريق السفر إلى بغداد، معرّضاً نفسه للمساءلة والطرد من الوظيفة، وربما السجن أيضاً، عندما صارحه، بعد لأي وأخذ ورد، بحقيقة شخصيته، وبأنه ينوي التوجه إلى العراق، هرباً من الفرنسيين الذين يعملون على اعتقاله.

سيتذكّر بعد سنوات طويلة، لقاءه الأول مع نوري السعيد، رئيس الوزراء العراقي آنذاك، في اليوم الثاني من وصوله إلى بغداد، وكيف سأله، بمكر، عن الطريقة التي ساعده فيها الفرنسيون على الهروب من لبنان وسوريا.. وتلك الابتسامة الصفراء التي ارتسمت على محياه، عندما أكد له أن الفرنسيين لم يعلموا بأمره، وأنهم لو علموا لمنعوه من ذلك.

سوف لن ينسى امتعاض نوري بيك وقلقه، ونظراته الساهمة، طوال هذا اللقاء، على الرغم من حسن الاستقبال والترحيب اللفظي المبالغ فيه .

سيتذكّر دائماً، وبمرارة مضاعفة، الشهور التسعة عشر التي قضاها في العراق، في لجّة الصراع بين مؤيدي نوري السعيد ومناهضيهم من أفراد النخبة السياسية. وكيف كان يسعى بكل ما أوتي من قوة، لإبعاد المجاهدين الفلسطينيين اللاجئين عن الدخول في هذا الأتون الحارق، وإصرار طرفي النزاع على هذا التدخل.

سيتذكّر على الدوام، بحسرة وألم، ليلة التاسع والعشرين من أيار، تلك الليلة التي هزمت فيها القوات العراقية أمام القوات البريطانية الزاحفة، في معركة استمرت يومين، استبسل العراقيون فيها ذوداً عن عاصمتهم.

وخروجه منهزماً من بغداد إلى خانقين، عند الحدود مع إيران، برفقة رئيس الوزراء، رشيد عالي الكيلاني، في قطار امتلأ بالضباط والوزراء والمرافقين، وعدد من رجال الجهاد والوطنية من عراقيين وفلسطينيين وسوريين. وكيف اضطروا للدخول إلى إيران، بعد مكيدة نصبها لهم الإنكليز وعملاؤهم..

سيتذكر ذلك كله، وفي قلبه غصة لن تزول أبداً.

يافا، 13 كانون الأول 1939

يغلق محمد صالح الكيالي باب الأستديو، ويمضي إلى بيته.. إنها السابعة مساءً.

فور عودته من باريس افتتح هذا الأستديو في دكان والده المغلق منذ سنوات، في سوق إسكندر عوض، وأسماه «المصور الفني»، وخلال شهر واحد، غدا الأول في يافا، وحوَّل الخواجا آغوب إلى موضة قديمة.

استخدم الخدع الضوئية التي تعلمها في أشهر أستديوهات باريس.. وضع صور بعض زبائنه داخل زهرة، وآخرين داخل قلب. ألبس أفقر شباب يافا أفخر الثياب الباريسية، وحوّل الفتيات البشعات إلى أجمل الجميلات بتشكيلة الباروكات الشقراء التي جلبها معه، وبتقنية الرتوش التي تعلمها بمهارة من مصور أستديو «دوماس فوتو»، كان يحول البشرة المتجعدة والمشوهة بندوب حب الشباب، إلى ملساء نضرة. أما هواة الغرائب، من محبي الصور المتعاكسة، والراغبين في الجلوس على ظهور الأسود، أو النمور، أو بين الأفاعي الضخمة، فقد حقق لهم رغباتهم.

ليست المسافة بين بيت الأسرة في المنشية والأستديو بعيدة، يفضل أن يقطعها مشياً على الأقدام، وهو يدخن بعض اللفافات، مهما كان الجو بارداً أو حاراً.

العمل في الأستديو لا يرضي طموحه. هدفه الأول هو السينما وليس الفوتوغراف. أستديو «المصور الفني» مجرد باب رزق، يؤمن له دخلاً جيداً، يساعده على تمويل مشروعه السينمائي الذي طال التفكير فيه.

في غيابه، حدث كل شيء. اشتبك عرب يافا ويهود تل أبيب. انطلقت مظاهرات هادرة في المدن كافة ضد الوطن القومي اليهودي. من هنا، من منشية يافا، عمَّ الإضراب الكبير فلسطين بأسرها ستة شهور متواصلة.

أشعل المجاهدون ثورتهم المسلحة في جميع المناطق. تحصّنوا بالأرياف، واتخذوا الجبال حصوناً لهم.

يا الله كم تغير شكل المدينة. هدم الإنكليز معظم البلدة القديمة بحجة تجميلها. كان هدفهم التخلص من الأزقة التي يصعب على سياراتهم الدخول إليها.

لم يعبأوا بالعائلات التي كانت تسكن هذا الحيز من المدينة، ولا بالأبنية الأثرية المقنطرة التي تعود إلى مئات السنين، لم يعبأوا بشيء. فقط، كان هدفهم إسكات الثورة، مهما كلفهم ذلك من أرواح وممتلكات.

في غيابه، تغير كل شيء. المدينة أصبحت كئيبة، والناس أكثر توتراً وعصبية، وغابت عن وجوههم تلك الضحكات العفوية والصخب الجميل في الأسواق.

كل فرد في يافا خسر شيئاً ما، بيتاً أو ابناً أو شقيقاً أو بيارة برتقال. نخبة شباب يافا ورجالاتها أصبحوا مشرّدين في المنافي..

افتقد «شلة» المدرسة الأميرية. افتقد جلوسهم في القهوة الوطنية، وتنافسهم في الجري صبيحة كلّ يوم على شاطئ المنشية.. افتقد التسكع معهم قرب مدرسة الزهراء، فور انتهاء دوام المدرسة.. وركوب الدراجات

الهوائية والتوغل معهم في عمق بيارات البرتقال، إلى تل الريش، شرقي حي النزهة.

تتكاثف الغيوم، وتزداد سرعة الريح، فيغلق أزرار معطفه ويثبِّت القبعة على رأسه جيداً، ويغذُّ السير.

أضواء السوق تنطفئ شيئاً فشيئاً، وثمة سيارة جيب للجيش البريطاني تجوب الشارع.

من أين له أن يعجب بالسريالية، وهو يتلمس هذا الواقع الخشن، كيف له أن يستمتع بمشهد يد ينبع النمل منها، وأمامه نمل من نوع آخر، ينبع من داخل سفن كبيرة، تأتي من خلف البحار، يتسلل بدأب غريب إلى الأرض أمام الأعين، ولا أحد قادر على منعه. نملٌ شره جداً يلتهم كل شيء، ويحتل جميع الأمكنة.

الجو يزداد برودة والريح بدأت تصفّر في المداخن.. يمج آخر نفس من لفافة التبغ ويلقيها بعيداً، قبل أن يلج مدخل العمارة.

القدس، 29 آذار 1940

يدخل محمد صالح الكيالي إلى قاعة كبيرة ذات إضاءة صفراء خافتة، حاملاً علبتين للأفلام. ثمة بابان متقابلان للقاعة المطلية بالأبيض اللماع، والذي تحول إلى أصفر داكن، أقرب إلى البني، بسبب كثافة المراجعين، وتدخينهم المتواصل بانتظار دورهم.

في آخر القاعة آلة عرض سينمائي، وفي الجهة المقابلة، شاشة بيضاء من القماش.

يتأمل الكيالي الجالسين، محاولاً أن يجد مكاناً يجلس فيه، فيجد حيّزاً صغيراً إلى جانب إبراهيم سرحان الذي كان يحتضن علبتين معدنيتين للأفلام.

ينظر أحدهما للآخر، ويتبادلان ابتسامات مجاملة من دون كلام.

يقطع موظف عربي، بصوته العالي، هنيهة الصمت والانتظار:

- الآن، سوف يأتي مستر بول لكي يرى أفلامكم، فليستعد سرحان، ومن بعده كيالي، وبعد ذلك، سوف نرى طلبات باقي المراجعين.

يلتفت الموظف إلى إبراهيم، ويسأله بحزم:

- هل جهزت آلة العرض؟

ينهض إبراهيم بعنفوان، وهو يقول:

- الآلة جاهزة وهي تنتظر سعادته.

يهزّ الموظف رأسه بحركة تشبه النابض، قبل أن يردف:

- ضع فيلمك في الآلة، وكن مستعداً.

ينهض إبراهيم إلى آلة العرض، ويضع فيلمه فيها، ثم يضبط الصورة على الشاشة، ويومئ للموظف برأسه.

- كل شيء جاهز.

يطفأ النور ويدخل الحاكم العسكري البريطاني بكامل زيّه الحربي، ويجلس على كرسي وثير مخصص له.

لا يشاهد الحاكم جميع الأفلام التي تعرض للرقابة، يكتفي فقط بأفلام منتقاة.. أما الباقي، وهي في معظمها أفلام عربية أو أجنبية، فثمة لجنة تقوم بالسماح أو المنع، أو منع بعض المشاهد، من دون الرجوع إلى الحاكم.

يبدأ عرض الفيلم، فيظهر عنوانه، «أحلام تحققت»، إعداد إبراهيم حسن سرحان.

نرى الحرم القدسي وجموع المصلين، ومجموعة من الأطفال في ميتم وهم يصطفون في رتل. تتلاحق المشاهد لأطفال الميتم في قاعات الدراسة، ثم لقطات في ورشات النجارة وهم يصنعون قطع الأثاث والموبيليا، ثم ورشات الحدادة والخراطة والميكانيكا، ثم وهم يأكلون ويشربون ويلهون.

يتململ مستر بول في مكانه ويشير إلى الموظف العربي، فتضاء الأنوار ويهز رأسه بالإيجاب، فتعلو الابتسامة وجه الموظف الذي ينقلها إلى وجه إبراهيم سرحان.

يرفع إبراهيم كفيه شاكراً لله، ثم يخرج فيلمه من آلة العرض ويضعه في علبته، ويجلس ليتابع الفيلم التالي.

ينهض الكيالي بعد إيماءة من الموظف، ويضع فيلمه في الآلة. ويبدأ العرض.

عنوان الفيلم «زراعة البرتقال في يافا».

ثمة لقطات لبيارات البرتقال اللامتناهية، وهناك فلاحون يحملون السلال على ظهورهم، وآخرون يصعدون على سلالم، يقطفون الثمار ويلقونها في السلال.

ترصد الكاميرا تعابير الوجوه، ونظرات السعادة، وحبّات العرق على الجباه.

نرى، بعد ذلك، عنبراً كبيراً فيه عمال كثيرون، وهم يفرزون حبات البرتقال بعناية، ويلفون الحبات بورق الزبدة حبة حبة. تركز اللقطة على رجل كهل بشارب أبيض، يعتمر قبعة بيضاء، وهو يضع حبة البرتقال المغلفة بعناية كبيرة في صندوق خشبي، وكأنه جوهري يثبت قطعة الماس في موضعها على حلية ذهبية، مشغولة بعناية فائقة.

نرى قافلة من الجمال المحملة بصناديق البرتقال بطريقة لافتة، تتراكب فيها الصناديق فوق بعضها بشكل منحن على جانبي سنام الجمل. تسير القافلة نحو شاطئ البحر، وتتوقف قرب الماء لتنزل حمولتها التي ينقلها عمال ذوو عضلات مفتولة، يخوضون بالماء، إلى زوارق خشبية تصطف إلى جانب بعضها، لنقلها إلى سفن شحن بعيدة.

يومئ الحاكم العسكري للموظف بإيقاف العرض.

تضاء الأنوار، ويمضي مستر بول إلى مكتبه يتبعه الجميع.

صور الكيالي، غير هذا الفيلم، ثلاثة أفلام أخرى. الأول عن صيد السمك في يافا، والثاني عن سكب الحديد، والثالث عن صناعة النسيج، وهذا هو الفيلم الرابع، عن زراعة البرتقال في يافا.

لم تأخذ هذه الأفلام منه وقتاً وجهداً كثيرين، كانت المواقع جاهزة، والسيناريو واضحاً وبسيطاً، باستثناء «زراعة البرتقال»، المرتبط تصويره أصلاً بتوقيت الموسم الزراعي.

نجح بداية في بيع الأفلام لبعض دور السينما في يافا، فعرضتها قبل الأفلام الروائية على طريقة الجرائد السينمائية، لكن العائد كان زهيداً، لا يتجاوز ربع تكلفة العمليات الفنية. لذلك كان لا بدَّ من جهد تسويقي لدى دور العرض السينمائية، ليس في فلسطين وحدها، بل في عموم بلاد الشام ومصر.

فشل ميشيل، صديقه وجاره في المرحلة الفرنسية، كما كان يحب أن يسميها، وشريكه في المشروع السينمائي، في إقناع مموليه الأصليين بأن الموضوع يحتاج وقتاً وجهداً تسويقياً، فبدأوا يلحّون عليه بضرورة إرجاع المبالغ التي دفعوها ثمن معدات التصوير والتظهير والطباعة، ووصل الأمر إلى حدود التهديد بالشرطة، فأتى مسرعاً إلى يافا، وأخبر الكيالي بالمصيبة، ولم يكن لدى الكيالي أي تصور لحل سريع. فكر بعرض الأفلام على الموزعين المعروفين، فلم يتحمسوا للفكرة، ووعد بعضهم بدراستها.

عرض ميشيل النيكاتيف على شركات كانت تقدم خدمات التصوير لجريدتي «باثي نيوز السينمائية» البريطانية، و«مسيرة الزمن» الأميركية، فدفعوا له ثمناً معقولاً يمثل إنقاذاً للمشروع، كما قال للكيالي، لكن الكيالي رفض الفكرة، واعتبر بيع النيكاتيف بهذا الشكل المهين طعنة في ظهره، وقصر نظر من ميشيل.

كانت هذه المشكلة كافية بالنسبة له، لكي يفضّ الشراكة، ويذهب كل في سبيله وخياراته.. فالحياة لن تتوقف عند شركة.. المستقبل أمامه.

يافا، 29 آذار 1940

تحجب غيوم كثيفة غروب الشمس في البحر. تشكيل الألوان يلفت نظر العابرين. ثمّة مساحات من اللون الأحمر الناري، الملطخ بالأصفر الذهبي، المقطوع بتدرجات غير منتهية من الرمادي.

ينزل إبراهيم سرحان وصالح الكيالي من القطار في محطة المنشية، وهما يحملان حقائبهما. يمشيان سوياً في شارع المحطة، فيبدو غروب الشمس خلفية جميلة للمشهد.

يبادر إبراهيم:

- فيلمك جميل.

يبتسم الكيالي، ويرد المجاملة:

- شكراً، وفيلمك أيضاً.

يستجمع إبراهيم أفكاره التي كانت تتناهبه في رحلة القطار من القدس، ويطرحها بحماس طفولي:

- ما رأيك أن نتعاون معاً، ونصنع فيلماً كبيراً، مثل أفلام إبراهيم وبدر لاما، وعبد الوهاب، وأم كلثوم.

ماذا يرد عليه؟ أي عبد الوهاب وأي أم كلثوم؟ وإلى أي حد سيمضي معه في هذا الحديث الساذج؟!

يبدو الضيق على وجه الكيالي، الساهم في الغسق المتلون، لكنه ينتبه فجأة إلى أنه لا ينبغي له أن يكون جلفاً مع شاب بسيط محب، فيستدرك محاولاً الابتسام:

- كنت أود ذلك، لكنني أستعد للسفر إلى إيطاليا، لكي أدرس التصوير والإخراج السينمائي.

تجتاح الخيبة وجه إبراهيم فجأة، لكنه يتابع بيأس:

- هل يعني هذا أننا لن نعمل سوياً.

- الله أعلم، ربما، عندما أعود من إيطاليا، تكون الظروف قد تغيرت!

يتوقف إبراهيم فجأة، ثم يشير إلى الأنوار التي بدأت تنتشر في السفوح المقابلة للميناء:

- ولمن ستترك هذه البلاد.

يشعر الكيالي أن السؤال باغته، فيقطب حاجبيه، ثم يطرق قليلاً قبل أن يجيب:

- تقصد ما تبقى من البلاد!

يتبادل الرجلان الصمت هنيهة، فيبادر الكيالي:

- اسمع يا إبراهيم لن أكذب عليك.. سئمت من هذا الجو.. ليس من المعقول أن أعرض كل لقطة أصورها على الحاكم العسكري. تصور أنني حذفت مشهد تقشير البرتقال من فيلمي الأخير، لأن سكيناً صغيرة ظهرت فيه.

يردّ إبراهيم بتلقائية:

- ما العمل، هل نترك السينما لهم أيضاً؟

يتابع الرجلان السير ببطء، فيستأنف الكيالي حديثه بهدوء:

- طبعاً الأمر ليس كذلك، لن نترك لهم، لا السينما ولا الأرض، لكن الموضوع بحاجة إلى مزيد من التبصر والمعرفة، وإيصال صوتنا إلى العالم.

تبدو الحيرة على وجه إبراهيم الذي يتوقف متسائلاً:

- أي عالم!؟

يمتقع وجه الكيالي الذي يشعر للمرة الثانية أن السؤال باغته، من حيث لا يحتسب. كان قد وصل إلى أمام منزله، فيمد يده لإبراهيم سرحان مودعاً، من دون أن يقول شيئاً.

بعد خطوة، يتوقف إبراهيم وينادي:

- أستاذ صالح.. أريد أن أريك الموفيولا التي اخترعتها..

يتوقف الكيالي، وقد بدا الاهتمام في عينيه:

- موفيولا.. غداً.. غداً سأزورك، مر خذني من أستديو «المصور الفتي» في شارع بستروس على الساعة السابعة.

روما، 15 أيلول 1940

يصل محمد صالح الكيالي مبكراً إلى «مركز الفيلم التجريبي»، وهو المدرسة الوطنية للسينما. ينظر إلى ساعة يده. تشير إلى السابعة والنصف صباحاً، عدد قليل من الطلبة وصل قبله، اتخذ بعضهم مكاناً على درج المبنى، وراح يقرأ في كتيب، بينما مضى آخرون في أحاديث جانبية قتلاً للوقت.

هو اليوم الأول في الفصل الدراسي. أمضى الشهور الستة الأخيرة في تعلم الإيطالية.. تعلمها بسهولة، ربما بسبب إتقانه للفرنسية، أو بسبب كتابتها البسيطة، كما كان يرد على الأسئلة المتعجبة من سرعة تعلمه.

يمضي باتجاه لوحة الإعلانات، ثمة طلبة يقرأون توجيهات الفصول، يصطفُّ إلى جانبهم ويصل إلى الورقة التي تعنيه، يقرأها بتمعن، ثم يمضي إلى قاعة الدرس.

لم يأخذ فحص القبول الكثير من جهده، فهو ملمٌّ بأسس المهنة، يعرف أنواع الكاميرات، والأفلام وتظهيرها، وتقطيع اللقطات.. حتى الموفيولا عرفها من النظرة الأولى.. وابتسم عندما سأله أحد أعضاء لجنة الفحص عنها. وعندما استفسر عضو آخر عن سبب ابتسامته، أخبره بقصة الموفيولا

التي اخترعها إبراهيم سرحان في يافا، وكيف كانت موفيولا بدائية لا تقارن بالتي أمامه، لكنها في النهاية موفيولا، كما قال للجنة مبتسماً.

ابتسم الفاحص، ونهض في نهاية الاختبار، وصافح الكيالي، وقال له بجدية: سيد كيالي.. يشرفنا قبولك في مركز الفيلم التجريبي، سوف تتعلم معنا تقنيات التصوير والمونتاج والإخراج، خلال السنوات الثلاث التي ستمضيها معنا.

طار قلبه من الفرح. هكذا هي اختبارات القبول التي يحبها. سألوه عن أشياء تتعلق بفن السينما، ولم يجلبوا له ديكاً تزين صدره نياشين عسكرية، ليطلبوا منه تأليف حوارية سوريالية معه، كما فعلوا في فحص القبول الفرنسي، أو كما فعلوا في فحص القبول البلجيكي، عندما أغمضوا عينيه بقطعة من القماش، ووضعوا يديه في الماء المتجمد، وطلبوا منه أن يرتجل قصيدة من وحي الحالة!

الإيطاليون شعب واقعي، يحبهم بقوة، كما قال لنفسه، وهو يغادر قاعة الاختبار قبل أسبوعين، أما الآن فقد بدأ الدرس، وعليه أن ينجز هذا الفصل في وقته المحدد، لأن مدخراته لا تحتمل أي طارئ، ولا يريد أن يعود إلى تجربة جلي الصحون البائسة التي خبرها جيداً في باريس.

يدخل إلى القاعة. هو أول الواصلين. ثمة كاميرا مثبتة على قاعدة خشبية ذات أرجل ثلاث إلى جوار طاولة الأستاذ، وهناك مكتبة في الركن الأيسر من القاعة، وخزانة ذات باب زجاجي مغلق على بكرات فيلمية، وعدسات وكاميرات بأحجام مختلفة.

لا يزيد عدد مقاعد الطلبة عن عشرة، وفي عمق القاعة صورة للدوتشي موسوليني، مرتدياً بزّته العسكرية، وقبعته الأسطوانية المميزة ذات الريشة الطويلة، وهو ينظر في عدسة كاميرا.

يجلس الكيالي في المقعد الأيمن في الصف الأول. وبعد قليل، يدخل باقي الطلاب بابتساماتهم المرحبة، يتبعهم الأستاذ. إنها الثامنة صباحاً. يبدأ الدرس الأول.

في الأشهر اللاحقة سوف يزور أستديوهات «شينيشيتا»، الخيالية في ضخامتها، وسوف يحضر تصوير أفلام ترصد حياة القصور، وهموم الطبقة البورجوازية المترفة ومغامراتها ونهاياتها السعيدة، وثرثراتها المطولة عبر التلفونات البيضاء.

سوف يحضر بعض حلقات النقاش التي ينظمها زملاؤه في المدرسة مع كُتّاب مجلة «سينما»، أمثال لوتشيانو فيسكونتي، وتشيزاري زفاتيني، وغيرهم من أبطال، ما سيُعرف فيما بعد، بموجة الواقعية الإيطالية الجديدة، وصقور المعركة الحالية المندلعة ضد ما يسمونها، سخريةً واحتقاراً، أفلام «التلفون الأبيض»، هذه الأفلام التي كانت تُفرِّخها أستديوهات «شينيشيتا»، لتكريس القيم المحافظة، واحترام السلطة، والتراتبية المجتمعية.

لن ينخرط في تلك النقاشات، على الرغم من إعجابه بطروحات روبيرتو روسوليني الداعية إلى الخروج من الأستديوهات، والانطلاق إلى تصوير الحياة الواقعية، حتى في أفلام الروايات.. لن يحاول أبداً أن يختبر هذه النقاشات أكثر من تلك الجلسات العرضية العفوية.. لن يكرر تجربة فرنسا العبثية، فمعركته ليست هنا.. إنها هناك في يافا.. صدمة يافا أيقظته.. يافا التي كانت تتغير في كل لحظة من حال إلى حال.. يافا المتسربة من بين

الأصابع، كما رمال شاطئها.. لا يريد الغوص في النقاشات الجمالية مجدداً. لا وقت ولا مكان عنده لهذا الترف الفكري. تكفيه السنوات الثلاث من الضياع والتسكع في باريس. عليه أن يكتسب الخبرة في التصوير والمونتاج والإخراج في أسرع وقت. عليه أن يتعلم أسرار هذه الصناعة، لكي يعود إلى يافا، وينقذ ما يستطيع إنقاذه، وإن بالكاميرا!

سيكتفي بمتابعة مجلة «سينما»، ففيها الآراء والأفكار كلها، من رئيس تحريرها فيتوريو موسوليني ونجل الدوتشي، إلى روبيرتو روسوللیني ومايكل أنجلو أنطونيوني.

اسطنبول، 3 أيلول 1941

يكتفي ذو الكفل عبد اللطيف بالإصغاء إلى الحديث المتشعب لرئيس الوزراء العراقي الهارب، رشيد عالي الكيلاني، مع الشيخ حسن أبو السعود وراسم الخالدي ومصطفى الوكيل، حول خذلان الألمان العرب في المعركة الأخيرة مع الإنكليز على أرض العراق.

وصل الكيلاني إلى تركيا قبل أيام، بعد أن سمح له الأتراك بالدخول، ومنعوا ذلك عن المفتي، بسبب موقفه الناقد لأتاتورك. وبعد يوم من وصوله، طلب الاجتماع بجماعة المفتي، المقيمين في اسطنبول، بانتظار الأوامر من سماحته.

يلوذ ذو الكفل بالصمت البليغ. لا يريد أن يقول لهم إن سبب الهزيمة في معركتي الرطبة هو أحد رموز العروبة والجهاد، فوزي القاوقجي، وليس تخاذل الألمان عن نصرة العرب! فالقاوقجي لا يزال بالنسبة لهم منزَّهاً عن أي شكوك بالتواطؤ أو الخيانة.

كان ذو الكفل على قناعة مطلقة بعمالة القاوقجي للإنكليز. لديه شواهد كثيرة تجعل قناعته تلك أشبه بحجر الصوان!

بدأت، شكوكه الأولى حين كان القاوقجي يشتري الأسلحة للمجاهدين الفلسطينيين، فبدل أن يرسلها إليهم، كان يكدسها في حديقة بيته الواسعة

قرب بغداد حتى أكلها الصدأ. يومها فاتح المفتي بالأمر، فاسترعى اهتمامه. ولذلك اقترح أن يمنح القاوقجي رتبة مقدم، حتى يحاكم عسكرياً إنْ ثبتت خيانته! هكذا قال لذو الكفل.

ويبدو أن شكوكه المتعاظمة تعززت خلال التجربة المريرة معه، حين عيّنوه آمراً للفصيلين الفلسطينيْن المشاركيْن بقوات البادية المتطوعة، إلى جانب الفصيليْن السورييْن، والفصيليْن العراقييْن، تحت قيادة عامة للمقدم القاوقجي، للحيلولة دون تسرب قوات العدو البريطاني من شرقي الأردن، عبر البادية إلى معسكر سن الذبان بالحبانية، لدعم قواته المحاصرة آنذاك من القوات النظامية العراقية.

لن ينسى تواطؤه مع الشيخ محمد ابن هذّال، في تضليل هذه القوات، وشراء الوقت، ريثما يحكم الإنكليز سيطرتهم على قلعة الرطبة الاستراتيجية. ولن ينسى كيف جعلهم يدورون في الصحراء ثلاثة أيام على غير هدى، وكيف منعهم من استهداف القافلة الإنكليزية التي أمنت الإمداد للمحاصرين في هيت، ولن ينسى، بالإضافة إلى ذلك، علاقته الغريبة والمشبوهة، بضابط الاستخبارات البريطانية، المدعو أبو جورج، والذي كان يغطي نشاطه الاستخباراتي، بالعمل وكيلاً لشركة نقليات «نيرن» في قلعة الرطبة.

ليس الأمر مجرد شكوك بالنسبة له، إنها قناعة لا يمكن لأحد على وجه هذه الأرض أن يهزها!

ينتبه رشيد عالي الكيلاني إلى صمت ذو الكفل وشروده في أثناء الحديث، فيبادره باسماً:

- بماذا يفكر سيادة الملازم؟

ينتبه ذو الكفل إلى ابتسامة الكيلاني، ولكنه لا يتذكر ما قاله بالضبط، فيرد عليه بابتسامة مماثلة ويواصل صمته، فيتابع الكيلاني حديثه الطويل:

- حتى الآن، لم نتفاهم مع الألمان بشكل كامل، لكننا في طريقنا إلى ذلك، وسيلتقي المفتي القيادة الألمانية قريباً، ومن المتوقع أن ينجز الاتفاق الذي ناقشناه مطولاً، ويتضمن نصوصاً محددة حول مطالب العرب بعد انتصار الألمان على الحلفاء. لكن الموضوع الملح الآن هو معسكر أثينا.

يستعيد ذو الكفل كامل انتباهه فور سماع الجملة الأخيرة:

- سمعنا عن هذا المعسكر، سيادة الرئيس، لكن ألا يوجد تفاصيل؟

يهز الكيلاني رأسه هزات خفيفة، وهو يبتسم:

- سمعنا أن الألمان جمعوا فيه ما استطاعوا من شباب العرب الدارسين في أوروبا، وخصوصاً ألمانيا، أو ممن فرّوا مع القوات الألمانية، بعد انسحابها من لبنان وسوريا، في أثناء احتلال القوات الديغولية والبريطانية لهما، وقد بلغنا، عن طريق الأتراك، أن الألمان يرغبون في ضم الشباب العرب المتواجدين في اسطنبول إلى ذلك المعسكر، لتدريبهم وإعادتهم إلى الوطن العربي، لتحريره من محتليه .. من أجل هذا، وقع اختيار المفتي عليك، للذهاب إلى أثينا، والاطلاع على ما يشاع حول هذا المعسكر، فإن كان أقيم لدوافع قومية تحريرية؛ تلتحق به وتشرف عليه، مخولاً في ذلك مني شخصياً ومن سماحة المفتي، وإن لم يكن كذلك، تعود إلى اسطنبول وتقدم تقريراً بذلك.

يغادر ذو الكفل الاجتماع منتشياً، وغير مصدق أن فكرته التي كان يحلم بها، بإعادة تنظيم الصفوف والتدريب النوعي على يد الألمان للعودة إلى الوطن، فلسطين، أصبحت قاب قوسين أو أدنى، فينطلق راكضاً في الشارع،

كأنه يستعد، منذ الآن، لدرس الرياضة الصباحي، الذي اشتاق إليه، منذ غادر العراق فاراً إلى اسطنبول؛ قبل ما يقرب العام، هو وباقي رجال الحركة العربية.

بعد يومين، سيتصل رجال السفارة الألمانية في اسطنبول بذو الكفل، وسيسهلون سفره إلى أثينا في قطار الشرق السريع. وفي صوفيا، سوف يستقبله الألمان استقبالاً حسناً وينزلوه في أفخر فنادقها، «غراند بلغاريا»، ثلاثة أسابيع، سيمر خلالها المفتي بصوفيا متخفياً، في طريقه إلى روما.

سيصل ذو الكفل بعد رحلة شاقة إلى أثينا، بصحبة عميلة للاستخبارات الألمانية، رافقته على أنها زوجته! وهناك، سيلتقي ممثلاً للإدارة الألمانية، يدعى كاسمان، يتقن العربية بلهجة حيفا.. سيدعوه للقاء رئيس الاستخبارات الألمانية لمنطقة الشرق الأوسط، المايّور فون بادن، والذي سيستقبله بحفاوة بالغة، ويطلب منه إطلاعه على حقيقة مهمته!

بعد أسابيع من المماطلة والأخذ والرد، سيلتقي ذو الكفل بضباط وجنود معسكر أثينا، وهم من خيرة شباب العرب ثقافة ووطنية، وسيفاجأ بدرجة الإحباط وخيبة الأمل التي يشعرون بها، فالمعسكر، كما تبين لهم، بعد أن تدربوا وتخرجوا ضباطاً وجنوداً عاملين، ليس أكثر من معسكر اعتقال لا يستطيعون الفكاك منه، ولا يملكون فيه من أمرهم شيئاً.

سيدرك ذو الكفل أن الألمان أقاموا هذا المعسكر لأغراض خاصة بهم، بعد أن حالوا بينه وبين زيارة المعسكر، أو الالتحاق به بالوسائل الممكنة كافة، لذلك، سيبلغهم أن مهمته انتهت، وأنه يريد العودة إلى اسطنبول، حسب تعليمات رؤسائه!

سيحول الألمان دون سفره، وسيمتنعون عن لقائه أسابيع عدة. سيحاول الهرب، ولن ينجح، وسيعضه الجوع بعد نفاد مدخراته، وسيفكر جدياً في الالتحاق بالمعسكر، لكن ذلك لن يجدي. ثمة أمر غامض قلب الألمان عليه، وجعلهم عدوانيين إلى هذه الدرجة تجاهه. سيعرف فيما سيأتي من أيام، أن الأمر كان دسيسة من القاوقجي، كتب تقريراً إلى المخابرات الألمانية ينصحهم بالحذر منه؛ لأنه قومي متطرف!

سيُجبر على العودة إلى الفندق ـــ المعتقل، وهو في غاية الامتعاض والغضب. وبعد أيام سيلتقيه راسم الخالدي مبعوثاً من المفتي الذي وصل إلى برلين، واستقر فيها متفاهماً مع الألمان، وسيخبره أنَّ الخلاف الذي كان قائماً، منذ «خذلان» الألمان لحركة رشيد عالي الكيلاني، قد سوي بين المفتي ورئيس الوزراء من جهة، والألمان من جهة أخرى، وسيبلغه رسمياً بقرار المكتب العربي الذي شكله المفتي في برلين، تكليفه بالإشراف على «محطة إذاعة العرب الأحرار»، في أثينا.

ستكون إذاعة عربية خالصة، كما قال له راسم، يبث فيها ما يراه مناسباً من أحاديث وتعليقات وأناشيد وتمثيليات من دون تدخل من الألمان، باستثناء حقهم في ترجمتها إلى الألمانية بعد بثها. وسيشارك فيها، كما أكد له، جميع «الإخوان» الموجودين في برلين وروما، بالأحاديث والتعليقات على الأحداث تباعاً، وسيسلمه بضعة أحاديث، ليبدأ فيها عمله، على أن يوافيه أسبوعياً بمثلها.

سيقبل ذو الكفل التكليف على مضض، وأن يكون مؤقتاً، حتى تحين الفرصة لتنفيذ خطة العودة إلى السلاح والمدربين.

روما، 17 تشرين الأول 1941

يخرج محمد صالح الكيالي من مدرسة السينما مبكراً هذا اليوم، أخبره أحد زملائه العاملين في جريدة «معهد لوتشييه» أنَّ مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني وصل إلى روما، وهو الآن في فندق اكسليسيور.

لا يعرف بالضبط أين يقع فندق أكسليسيور، لكنه سيعتمد على وصف زميله:

- يقع الفندق على الضفة اليمنى من نهر التيبر، قرب حدائق قيلا بورغيزي، عند تقاطع شارعي فيتوريو فينيتو وبونكومباني.

لم يُمض وقتاً كثيراً في البحث عن الفندق، فالشاخصات المرورية واضحة، ولافتة الفندق المميزة تفصح عنه.

يركن دراجته الهوائية في مكان مخصص، ويدخل إلى البهو الفسيح مستطلعاً.

تفاجئه فخامة المكان. الثريات والكراسي والأثاث من الطراز الفيكتوري، والبلاط الشطرنجي من الرخام اللماع المتناوب بين الأسود والأبيض، والقادم من عصر الباروك.

ثمة حركة غير اعتيادية.. يصادف دخوله خروج شخصية، يبدو أنها مهمة، بدليل المرافقين الأمنيين الذين يمسحون المكان بنظراتهم المتفحصة.

يلمح من بعيد المفتي بزيه الشرعي المعتاد، وصحبه بطرابيشهم الحمراء، وهم يمضون باتجاه المطعم في عمق المشهد.

يغذ السير نحوهم، وعندما يقترب منهم أكثر من اللزوم، يوقفه رجل أمن كان يراقبه منذ دخوله، فيحاول التملص متذمراً بلغة إيطالية طلقة.

ينتبه المفتي إلى الجلبة خلفه، فيتوقف، ويستدير باتجاه الصوت، وعندما تلتقي العيون، يصرخ الكيالي بصوت عالٍ:

- مولانا! أنا صالح الكيالي من يافا، أريد أن أراك.

يشير المفتي إلى رجل الأمن، وهو يبتسم ابتسامة أبوية، بأن يخلي الكيالي:

- تعال اقترب لا عليك.

يصافح الكيالي المفتي الذي يأخذه من يده باتجاه المطعم.

- تعال شاركنا الطعام.

يمضي الكيالي مع المفتي وصحبه، ويجلس في الجهة المقابلة للمفتي.

على طاولة الطعام التي ضمت أنواعاً من الباستا وشرائح السمك واللحم والسلطات المتنوعة والشوربات، يحاول الكيالي تذكير المفتي بفرقة الكشافة في ثانوية يافا الأميرية، عند زيارة الأمير سعود. فيجد المفتي صعوبة في التذكر، لكنه يتذكر تلك الزيارة على أي حال، على الرغم من انشغال باله بما قيل في اللقاءات المكثفة التي أجراها سحابة يومه.

يشرح الكيالي للمفتي أهمية السينما الوثائقية للقضية الفلسطينية، وتأثير الدعاية المصورة على الرأي العام، وكيف انضم إلى فريق الجريدة السينمائية التابع لمعهد «لوتشييه»، بعد أن أبدى تفوقاً في التصوير.

يبتسم المفتي مجاملاً:

- عندما تعود إلى الوطن؛ لا بدَّ أن تسجل كل شيء، فالأرض تتسرب من بين أيدينا مثل الرمل، والحرب مع أعدائنا تشمل كل شيء.

يلفت نظره استخدام الرمل في التعبير عن ضياع الأرض، كان يفكر بالمصطلح نفسه، فيتابع حديثه مسترسلاً، عن أهمية السينما في المعركة ضد الصهيونية، وكيف أن الدوتشي موسوليني أولى هذا الجانب عناية قصوى، عندما جعل معهد الثقافة الشعبية السينمائية مؤسسة غير ربحية؛ يجري تمويلها من ميزانية الدولة.

تبدو علامات التعب والتثاؤب على المفتي، فقد عقد لقاءات مطولة مع موظفي الخارجية الإيطالية، أبلغوه في نهايتها برغبة الدوتشي موسوليني في لقائه، وحددوا الموعد لذلك. وقبل قليل أنهى لقاء مطولاً مع الكونت بيسمارك، مستشار السفارة الألمانية في روما، والذي رحب هو الآخر، بزيارته ألمانيا واستعداد الفوهرر للاجتماع به.

ينهض المفتي مبتسماً للكيالي، معلناً انتهاء اللقاء:

- أهلا بك يا صالح في أي وقت.

يمضي المفتي وصحبه باتجاه المصعد، فيمضي الكيالي معهم من دون أن يعرف ماذا عليه أن يفعل في مثل هذه المواقف.. يودعهم هنا، أم يمضي معهم إلى باب المصعد..

وهم يتحركون، يحسم تردده ويرافقهم إلى المصعد. يصافحهم، ثم يستدير متوجهاً إلى باب الخروج مغادراً البهو الفسيح، وقبل أن يبتعد، يناديه المفتي:

- صالح! كان هناك مصور سينمائي غيرك في يافا، أسمر وقصير وشعره أجعد، هل تعرفه؟

يجيب الكيالي بسرعة:

– نعم.. إبراهيم سرحان.

يضحك المفتي من قلبه، قبل أن يلج المصعد. ويلوح بيده مودعاً .

يبتسم الكيالي متذكراً إبراهيم سرحان.. ثم يمضي باتجاه الباب.. إلى دراجته.

أعجبته لفتة المفتي الذكية والأبوية.. لا شكّ أنه لاحظ ارتباكه وحرجه، فأراد أن يلطف الجو ويطمئنه بأنه لم يكن ثقيل ظلّ، أو متطفلاً ثرثاراً.

كاد صمت المفتي ورفاقه على العشاء، واستئثاره بالحديث، وعدم تعليقهم على ما يقول، كاد أن يوحي له بأنه شخص مقيت غير مرغوب فيه.. لكن، هاهو المفتي، يكسر الجليد على الرغم من انشغاله وتعبه الشديدين، ويعيد إليه الثقة بنفسه، بعد أن فقدها بعض الوقت.

روما، قصر فينيسيا، 20 تشرين الأول 1941

عند مدخل قصر فينيسيا، يقف البارون إنفوزو، وزير الخارجية بالنيابة، منتظراً وصول مفتي القدس الأكبر.

منذ الصباح، حضر وفد من الخارجية الإيطالية، واصطحب الحاج أمين معه للقاء الدوتشي موسوليني.

يصل المفتي بزيه الشرعي الذي لا يغيّره أينما حلّ، يحفّ به رجال بالأسود.

يصافحه البارون بحرارة، ويمضي به إلى قاعة التشريفات.

ينتبه المفتي إلى الكيالي واقفاً مع طاقم التصوير السينمائي، بانتظار الأوامر لبدء التصوير.. يحييه من بعيد، بابتسامة وتلويحة خفيفة من يده.

يهز الكيالي رأسه، مبتسماً، عدة هزات، محاولاً ألاّ يلفت نظر أحد.

بعد حديث سريع، جله مجاملات باللغة الفرنسية، ينهض البارون إنفوز، وهو يدعو المفتي للمضي إلى مكتب الدوتشي.

يتبعهم فريق التصوير السينمائي، وفي المؤخرة، محمد صالح الكيالي الذي يحمل معدّات الإضاءة.

يستقبل موسوليني المفتي ببزة بنية اللون؛ وتقطيبة مصطنعة.

مكتب الدوتشي يشبه قاعة المحاضرات في سعته.

يخاطب الدوتشي المفتي بلغة فرنسية متينة، كأنه يلقي خطبة عصماء:

- أرحب بكم باسمي، وباسم الشعب الإيطالي والدولة، وأهنئكم لنجاتكم من براثن أعدائكم، في هذه الرحلة الشاقة الطويلة.

يردّ المفتي بفرنسية طليقة، مستحضراً بلاغته في إلقاء الخطب:

- الشكر لك أيها الزعيم، أمتنا لن تنسى وقفتكم هذه إلى جانبها.

يبتسم الدوتشي ابتسامة خفيفة تظهر المزيد من ضخامة فكّه الأسفل، ويشير إلى المفتي بيده في حركة استعراضية لافتة، إلى الدخول، ويسيران جنباً إلى جنب، ليصلا إلى كرسيين متقابلين أمام طاولة المكتب.

يدعو الدوتشي المفتي للجلوس، قبل أن يجلس هو، فيما يظل البارون إنفوزو واقفاً إلى يمينه.

يشير البارون إلى الفريق السينمائي للبدء بالتصوير. فتدور الكاميرا ملتقطة تفاصيل المشهد. يصطنع الدوتشي حديثا مرحاً، وابتسامات مع المفتي الذي يبادله الحديث والابتسام.

تركز لقطات المصور على حركات رأس الدوتشي، والتفاتاته الخاطفة، والمبالغ فيها.

يلتقط المفتي لمحة حزن دفين في عيني الدوتشي الصغيرتين، اللتين لا تثبتان في محجريهما.

تنتقل الكاميرا لتصور حركات يديه. يحاول أن يعطي انطباعاً بالقوة، عبر الحركات السريعة المشدودة والالتفاتات المفاجئة، المنسجمة كثيراً مع التقطيبة المصطنعة.

لا يولد الناس وهم يتحركون هكذا.. لا شكَّ في أنه تدرّب كثيراً، حتى وصلت حركاته إلى هذه الدرجة من العفوية في الأداء.

يتبع الكيالي المصور، وهو يحمل لمبات الإضاءة، محاذراً الظهور في الكادر. يسترق نظرة إلى المفتي الذي ينتبه إليه، فيهز رأسه مبتسماً مع غمزة من عينه اليسرى.

بإشارة من البارون إنفوزو، يتراجع فريق التصوير إلى خارج القاعة.

وما إن يغيب فريق التصوير، حتى يعود الهدوء إلى حركات موسوليني الذي يبادر مفتتحاً الحديث بالفرنسية:

- حدّثني أيها المبجل بالتفصيل الممل عن رحلتك، كيف كانت؟

يرد المفتي ممازحاً:

- رحلتي طويلة أيها القائد، ولا أظن أن وقتك يتسع لسماع تفاصيلها.

يبادر الدوتشي، مبتسماً:

- بل لديّ كل الوقت.. هيا أيها المبجل حدّثني.

يبدأ المفتي حديثه، وكأنه يقرأ من كتاب:

- بعد خروجي من فلسطين، على متن قارب شراعي، وصلت إلى بيروت متخفياً بزي بدوي. قبل أن أتوجه إلى بغداد، ولكن حكومة بريطانيا كانت تطلبني، وضيّقت الخناق عليّ وعلى رفاقي، فقررت التوجه إلى أفغانستان عن طريق إيران، إذ كنت على صلة ممتازة مع القادة الأفغان، أمثال فقير ايبي، وفيض محمد خان. لكن المخابرات البريطانية علمت بالأمر، فقررت التخفّي في طهران، بينما كان الإنكليز يبحثون عني عند الحدود الأفغانية الإيرانية.

يبدو الاهتمام على عيني الدوتشي القلقتين، فيشير إلى البارون إنفوز إشارة يفهمها. فيصفق البارون وهو ينظر إلى المدخل، وخلال لحظات، يُحضر الخدم المشروبات الساخنة والحلويات.

يشير الدوتشي بيده إلى المفتي بأن يشرب القهوة الساخنة:

- تفضل أيها المحترم، وتابع حديثك، فأنا متشوق لسماع المزيد.

يأخذ المفتي جرعة كبيرة من فنجان القهوة، ويستأنف حديثه مسترسلاً:

- سرعة الزحف الإنكليزي باتجاه طهران اضطرتنا للبقاء متخفين، ومنعتنا من المغادرة. ووصلت إليّ رسائل بأن الإنكليز مصممون على اعتقالي. كانت أسرة الشاهنشاه رضا بهلوي قد غادرت طهران إلى أصفهان، ثم ما لبث الشاهنشاه نفسه أن غادر طهران، فشعرنا بالخطر، وكان لا بد من المغادرة، مع أنباء وصول الإنكليز والروس إلى مشارف العاصمة.

لجأت إلى السفارة اليابانية، بعد أن كاد الإنكليز أن يقبضوا عليّ، فقد أعلنوا مكافأة مالية كبيرة لمن يدلي بأي معلومة عني. ومن السفارة اليابانية، توجهت إلى الحدود مع تركيا.

يشرب المفتي جرعة أخرى من القهوة، ويتابع حديثه الذي يثير المزيد من اهتمام الدوتشي:

- والروس، حدثني عن الروس، ماذا فعلوا؟

يأخذ المفتي نفساً عميقاً قبل أن يتابع حديثه:

- الروس أوقفوني عدة مرات في الطريق من طهران إلى كرج وزنجان وتبريز، لكني كنت أتملص منهم. وعلى الحدود الإيرانية التركية، شكوا في أمري، وأبقوني ساعات عدة، وغادرت حقائبي ونقودي مع سيارة المسافرين، وبقيت وحدي رهن الاحتجاز، لكن دبلوماسيا يابانياً يعرفني أنقذني من الموقف الحرج، واصطحبني بسيارته إلى داخل الأراضي التركية. فمضيت إلى إسطنبول عن طريق مدينة أرضروم، ولم أفصح عن شخصيتي، ولم أتكلم بالتركية التي أجيدها كلغة أم، خشية افتضاح أمري. ثم مضيت

إلى بلغاريا، وركبت القطار إلى رومانيا، وقضيت يوماً في بوخارست، ثم استأنفت السير إلى هنغاريا، فأمضيت في بودابست بعض الوقت، قبل وصولي إلى إيطاليا.

يبادر موسوليني فور سماعه اسم إيطاليا:

- أهلا بك في بلاد الرومان العظيمة. سوف نعيد أمجاد روما، كما كانت امبراطورية قوية. لكن، كما ترى أيها المبجل، الطريق شاقة، فهؤلاء الرومان الجدد، خاملون لا يريدون من هذه الحياة سوى شرب النبيذ ومضاجعة النساء وأكل الباستا والعيش بدعة، في وقت لا مكان فيه للودعاء. لن تقوم للإيطاليين قائمة، إن ظلوا على خمولهم. لا أمل أمام الإيطاليين سوى الفاشية تعيد إليهم مجدهم الغابر.

يشير الدوتشي إلى البارون إنفوزو الذي يصفق من فوره، فيحضر الخدم خارطة كبيرة للعالم.

ينهض الدوتشي إلى الخارطة، ويشرح للمفتي الذي ينهض بدوره، ويقف إلى جانبه، توضُّع القوى العالمية الكبرى المتصارعة ومناطق نفوذها.

- من الخطأ الكبير دخول مغامرة في روسيا.. سيكون خطأ فادحاً يرتكبه صديقي الفوهرر إن هو غامر، وأرسل قواته إلى روسيا التي تورط الجميع بثلوجها ووحولها، قبل أن تردّهم على أعقابهم. روسيا هذه دفنت مشروع نابليون، وأخشى أن تدفن مشروع صديقي الفوهرر.

يأخذ المفتي زمام المبادرة، ويشرح للدوتشي على الخارطة، أيضاً، قضية العرب والوضع في فلسطين، وأبعاد المؤامرة الاستعمارية الصهيونية، وضرورة إلغاء فكرة الوطن القومي لليهود.

يستدير الدوتشي عائداً إلى مكانه يتبعه المفتي، فينسحب حملة الخارطة.

يتابع المفتي حديثه:

- مقاومتنا للوطن القومي لليهود ليست بسبب تعصبنا الديني كما يقولون، بل هي دفاع عن كياننا، وذوداً عن بلادنا، ونحن عشنا مع المسيحيين واليهود مئات السنين، مواطنين متّحدين متعاونين.

يهز الدوتشي رأسه هزات عدة، دليل الموافقة والتصديق، بينما تجتاح عينيه مسحة من الحزن المفاجئ:

- أعلم هذا، وأعلم الكثير عن أحوالكم، لا سيّما دينكم، درست القرآن والتاريخ الإسلامي، وأعرف تسامح الإسلام، لكن هؤلاء لا يعلمون.

يقول جملته الأخيرة، وهو يشير إلى البارون إنفوزو الذي يتظاهر بعدم سماع الحديث. ويتابع:

- مطالبكم عادلة وجديرة بالاحترام، وإيطاليا مستعدة للاعتراف بذلك، والمساعدة في تحقيق استقلال بلادكم العربية، أما الوطن القومي اليهودي، فلكم كل الحق في مقاومته، ونحن معكم في ذلك.

ينهض الدوتشي إلى النافذة وينظر إلى ساحة فينيسا شبه الفارغة:

- لدينا في إيطاليا 46 ألف يهودي من أصل 46 مليون إيطالي. متحناهم حقوقهم كافة، لكن ولاءهم لم يكن في يوم من الأيام لإيطاليا، كلهم جواسيس ضدنا وموالون لأعدائنا، إنهم طابور خامس في بلادنا. ولذلك سيكون موقفنا منهم مثل موقفهم من بلادنا.

وهو يعود للجلوس على كرسيه مقابل المفتي:

- نعتبركم أصدقاء لدول المحور في هذه الحرب التي سيكون لنتيجتها أثر على مستقبلنا ومستقبلكم أيضاً. لذلك، نرغب في أن يقوم التعاون بيننا وبينكم، على أساس الثقة والإخلاص. ومن أجل هذا أرحب بكم، لقد

وصلتم في الوقت المناسب، الملائم للاهتمام بمنطقة الشرق الأدنى التي أعتبرها أهم المناطق، وإني شديد الاغتباط بوصولكم، وإقامتكم لدينا.

يرسم المفتي على وجهه ابتسامة امتنان:

- لكم كل الشكر على حسن الاستقبال والضيافة. لكن، أود أن أزور ألمانيا للقاء الفوهرر.

يبادر موسوليني فور سماع اسم الفوهرر:

- أرجو أن توجه اهتمامهم هناك، خصوصاً صديقي الفوهرر، إلى أهمية منطقة الشرق الأدنى، وخصوصاً قناة السويس، فإنها حلق الإمبراطورية البريطانية، فمنها نستطيع أن نخنقها، ونخمد أنفاسها، إنها أهم من أي جبهة أخرى، لاسيّما جبهة روسيا.

لا يصدّق المفتي ما يسمع، يُحاول جاهداً أن يكتم ضحكة كادت تفضحه. هل هو حقاً في موضع يسمح له بإسداء النصح إلى الفوهرر؟ وهل الدوتشي جاد حقاً في كلامه، أم أنه يسخر؟ لا يبدو عليه أي ملمح من ملامح السخرية.

يلتزم المفتي الصمت، فالملاحظة الأخيرة أربكته قليلاً، من المفترض أن يطرح الآن موضوع احتلال ليبيا، وتأثيره السلبي على ثقة العرب بدول المحور.

يستغل الدوتشي هذا الفاصل الصامت، لينهض معلناً نهاية الجلسة التي طالت أكثر من المعتاد، في حين يشير البارون إنفوزو إلى طاقم التصوير بالدخول مجدداً.

تلتقط الكاميرا خطوات الوداع إلى باب القاعة. مصافحة الدوتشي المفتي بحرارة وهو يكرر عبارات المجاملة والترحيب، وتوجيهاته المبالغ فيها

للبارون بضرورة العناية بالمفتي، وتحقيق كل طلباته، وعودة الالتفاتات السريعة والخاطفة.

في الردهة الطويلة التي تفضي إلى باب القصر، تتكاثف الأفكار في رأس المفتي.. كيف لم يبحث معه قضية ليبيا؟ كيف لم يشرح له معاناة الأشقاء الليبيين الذين دفعوا، ويدفعون، ثمناً باهظاً، فنصفهم الآن بين قتيل وشريد؟ كيف سيرتاح ضميره إن هو تجاهل ليبيا؟

بعد أشهر من هذا اللقاء، سيقول للسنيور فيتيتي، وكيل وزارة الخارجية، في مستهل المأدبة التي أقامها على شرفه:

- سيظل استمرار احتلالكم ليبيا واستعمارها، أكبر حائل دون اطمئنان العرب خاصة، والمسلمين عامة، لكم.

وسيجيبه السنيور فيتيتي بديبلوماسية مراوغة:

- حقاً إن ما وقع في ليبيا سبب لنا متاعب كثيرة، فعندما كانت السياسة الإيطالية تتأثر كثيراً بالسياسة البريطانية، قبل عهد الفاشست، خدعتْنا، هي وفرنسا، واستولتا على أغنى الأقطار وأغلاها في شمالي إفريقيا، وأغرتانا باقتحام ليبيا في العام 1911، فلم نجد فيها على الرغم من الجهود المضنية، والخسائر الفادحة في الأنفس والممتلكات، غير الرصاص والرمال. ولم نجن من ذلك إلاّ بغض العرب ومقت المسلمين لنا، ولا بد لنا من تبديل الموقف بعد هذه الحرب، بما يرضي الليبيين، ويضمن لنا استعادة صلات الود والصداقة مع الأقطار العربية.

سوف لن تقنعه هذه العبارات المخاتلة المنتقاة بعناية، والساعية إلى إلقاء تبعات جرائم الجيوش الإيطالية بحق الليبيين، على بريطانيا وفرنسا.

سوف لن تقنعه كل مبررات فيتيتي، فدماء نصف مليون ليبي كانت ما تزال حارّة في ذهنه..

قبل هذه الدعوة، كان زعماء ليبيون كثيرون قد اخبروه في جلسات كثيرة، خلال زياراته شبه الدورية إلى روما، كيف كان حال الطليان قبل الحرب، وكيف نقضوا الاتفاقات، ورفضوا الاعتراف بالمحاكم الشرعية، وكيف فوّض موسوليني قادته سلطات مطلقة، وكيف قتلوا مائتي ألف ليبي خلال سنوات ثلاث، حين وضع خطة مجنونة لاستيطان الإيطاليين في ليبيا، مستلهماً التجربة الفرنسية البائسة. وكيف اعتقل الشيخ عمر المختار، وكيف قررت المحكمة إعدامه، وقد تجاوز سنه الخامسة والسبعين. وكيف أعلن مرسوماً، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، بتسعة شهور ضم فيه طرابلس وبرقة، وجعلهما جزءًا من الوطن الأم، أي إيطاليا! وكيف حاول فرض الجنسية الإيطالية على الليبيين، وكيف ألزمهم بتعلم اللغة الإيطالية، وكيف كان جزاء كل من عارضه هتكَ عرضه، أو إلقاءَه حياً من الطائرة.

سيدخل الليبيون الشك إلى قلب المفتي والأرق إلى عينيه. سيجعلونه غير واثق بأي وعد من الوعود التي قطعت له، فالعبرة ليست في الوعود. العبرة في التنفيذ.

بعد أيام من مأدبة فيتيتي، سيستقبل في فيلا كولونا وفود المهنئين، من العرب والمسلمين، المقيمين في روما بعيد الأضحى. وسيقول له وهبي البوري، عندما يحضر هو ومجموعة من الطلاب الليبيين:

- نتقدم إليكم بالتهنئة، لما تنتظره بلادكم من فوز وفرج، أما نحن الليبيين فإننا نشارككم في الابتهاج، رغم أنه ليس لنا في هذا النصر أي أمل أو رجاء.

سيرد عليه بتأثر شديد:

- «وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهَّ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهَّ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ»، وإني أؤكد لكم أن جهاد ليبيا وتضحياتها العظيمة لن تذهب سدى، فلا بدَّ لكم من الفوز في النهاية، فتستقل بلادكم، وتنالون أجر جهادكم.

بعد ثماني سنوات من ذلك العيد، وكان قد مضى على نكبة فلسطين عامان، ستصل إليه رسالة، وهو على فراش المرض في مستشفى المواساة في الإسكندرية، من وزير خارجية ليبيا، الدكتور وهبي البوري، مهنئاً بعيد الأضحى، ومذكِّراً بذلك اللقاء في فيلا كولونا، وبالآية القرآنية الداعية لعدم اليأس والقنوط من فرج الله، والتي كانت بلسماً شفى قلبه الكسير، كما كتب في رسالته.

سيرد عليه المفتي برسالة يخبره فيها بأنه أبعد ما يكون عن اليأس، واثق كل الثقة بوعد الله ونصره، مهما طال الزمن وعظمت التضحيات.

روما، 25 تشرين الأول 1941

يتسلّل الكيالي إلى أستديو الجريدة السينمائية. الجميع انصرف، وبقي وحيداً في المكان.

يتوجه إلى الموفيولا.. لا يزال فيلم زيارة المفتي إلى الدوتشي فيها.

يشغّلها، يراقب المشاهد وهي تدور في البكرات. يتأملها وهو مأخوذ بشعور سحري. دخول المفتي وجلوسه وحركاته، وحديثه المرح مع الدوتشي.

وضوح اللقطات أكثر من رائع.. يشعر بالغبطة، كونه من نفّذ الإضاءة.

يبطئ اللقطات على اللحظة التي نظر فيها المفتي إليه، يوقف المشهد على غمزة العين اليسرى.

سحرته شخصية المفتي، وحضوره الأبوي الآسر ولباقته.

استعرض جميع الشخصيات الفلسطينية المعروفة، عوني عبد الهادي، ألفرد روك، أحمد حلمي عبد الباقي. لم يجد من هو أكثر حضوراً وجاذبية من المفتي.

يوقف الموفيولا، ويخرج من الأستديو، ويمضي إلى فيلا سكارلاتي، حيث انتقل المفتي، وصحبه، بناء على رغبة الدوتشي.

تقع الفيلا في ضواحي روما.

يركب التروموای، وهو يفكر بالمفتي. لا يريد أن يبتعد عنه، يريد أن يظل إلى جانبه.. أحبَّ فكرة أن يكون أحد رجاله الملازمين.

تخطر على باله فكرة رائعة، لماذا لا يدعوه إلى مشاهدة فيلم «الإسلام» الذي أنجزه معهد «لوتشييه» قبل أشهر قليلة، وساهم هو في إعداده، خصوصاً القسم المتعلق بفلسطين.

يصل إلى الفيلا؟ ثمة حرّاس على الباب، يسمحون له بالدخول بعد انتظار قليل.

يدخل إلى القاعة، فيجد بعض رجال المفتي جالسين يتحدثون.

يستقبله إسحاق درويش، ويقوده إلى مكتب المفتي الذي ينهض لاستقباله بالأحضان.

يتبادل عبارات المجاملة مع المفتي، ويشعر للحظة أنه يريد أن ينهض ليقبل يديه.

يتحدّث المفتي عن عزمه السفر خلال أيام قليلة إلى برلين، للقاء هتلر، وعن سعيه إلى الحصول من الفوهرر على اعتراف بالحقوق العربية.

كان المفتي يتحدث، والكيالي يستمع باهتمام شديد، والدموع تترقرق في عينيه..

أخيراً، ولد قائد لهذه الأمة بقامة هتلر وموسوليني.

أخيراً، ثمة رجل يختزل شخصية الأمة، ليقودها نحو فجر جديد، بعد سنوات الهزائم والاستسلام.

ومن دون أن يشعر كيف حدث ذلك، ينهض الكيالي، ويبدأ بتقبيل يدي المفتي الذي تعتريه الدهشة، فيسحب يديه، وهو يردد:

- أستغفر الله أستغفر الله.

تغلب الدموع محمد صالح الكيالي، فيقول، وهو في حالة تأثر شديد:

- مولانا أنت أملنا.. أنت أمل الأمة.

يصمت المفتي حرجاً وخجلاً. يتذكر قصة الدعوة إلى حضور الفيلم.

يلحُّ على المفتي، فيعده خيراً، وحين يغادر، يؤكد على الموعد مع إسحاق درويش.

روما، 29 تشرين الأول 1941

يحضر الكيالي إلى قاعة العرض في معهد لوتشييه قبل الموعد بربع ساعة، يطمئن على كل شيء، الفيلم والصوت والكراسي.

يدخل إلى غرفة العارض، يطمئن على الآلات.

نجح البارحة في إقناع مدير المعهد، السنيور لوتشيانو دي فيّو، في تنظيم هذا العرض الخاص للمفتي الأكبر، حول الفيلم الأوروبي الأول الذي ينصف المسلمين والعرب. راقت الفكرة للمدير، فهي المرة الأولى التي يعرض فيها الفيلم بحضور مسلمين.

إنها الرابعة عصراً، يصل المفتي في الموعد المحدد، بصحبة وزير الخارجية الإيطالي بالنيابة، البارون إنفوزو، ومعه عدد آخر من موظفي الخارجية الكبار ورفاق المفتي.

يستقبلهم السنيور لوتشيانو أمام باب القاعة، ويفاجأ بهذا الحضور الرسمي الخاص، فيسترق نظرة ممتنة إلى الكيالي الذي يبادله النظرة بابتسامة.

يجلس الكيالي خلف المفتي تماماً، ليترجم له النص المرافق للمشاهد.

تُطفأ الأضواء، ويبدأ الفيلم.

تظهر كرة أرضية، ثم خارطة ترتسم عليها مواقع انتشار المسلمين. تتحرك الخارطة مع الحديث عن المراحل التاريخية، ثم ينتقل الحديث إلى

الأندلس والعثمانيين، وصولاً إلى العصر الحديث، وقصة سايكس بيكو، وتقسيم الشرق العربي.

ثمة قسم عن مصر، وقسم آخر عن فلسطين، يأخذ حيزاً لا بأس به من مساحة الفيلم.

بعد أربع عشرة دقيقة، ينتهي الفيلم، فيصفق الحاضرون بحرارة. وينهض المفتي، ويرتجل كلمة باللغة الفرنسية، يشكر فيها إدارة المعهد والحكومة الإيطالية، ويشرح للحاضرين رسالة الإسلام السمحة، ثم يعرج على القضية الفلسطينية، مبيناً مقدار الظلم الكبير الذي تعرض له عرب فلسطين على يد الاستعمار البريطاني، والخطط التي تحاك في الخفاء، لإنشاء الوطن القومي اليهودي على حساب العرب.

يتحدّث السنيور لوتشيانو بعد المفتي، فيعترف، للمرة الأولى، بأن صاحب فكرة الفيلم هو الدوتشي موسوليني نفسه. طلب من لوتشيانو أن يقدم للجمهور الإيطالي فيلماً يوضح حقيقة الإسلام والمسلمين، والظلم الكبير الواقع عليهم من دول الحلفاء. ويستطرد لوتشيانو بالحديث عن زيارة الدوتشي إلى ليبيا قبل أربع سنوات، وكيف قلّده أعيانها سيفاً إسلامياً وكرسوه حامياً للإسلام والمسلمين.

يُصاب المفتي بالذهول.. كيف لم يطّلع على هذا التفصيل، وكيف لم يخبره الدوتشي به، على الرغم من أن مناسبة الحديث قد فتحت؟! أما الكيالي، فتصيبه المفاجأة لسبب آخر. كان يظن أنه صاحب فكرة الفيلم، وأن إدارة المعهد اقتنعت بالفكرة التي عرضها عليها فأنجزتها.

صحيح أن فكرته كانت فيلماً عن فلسطين فقط، ولم تكن عن الإسلام والمسلمين، كما أُنجز الفيلم بصيغته النهائية، لكن الفكرة الأولى كانت له.

يشعر بظلم كبير. كان ينتظر إشارة، ولو صغيرة، من لوتشيانو إلى دوره في الفيلم. ولكن ذلك لم يحدث.

يغادر المفتي والبارون وجميع المدعوين، ويبقى هو في كآبته التي هبطت عليه، في وقت كان ينتظر شكراً لا جحوداً.

ربما تذكر للمرة الأولى أن مكانه ليس هنا، وأن أفكاره ومشاريعه لا بدَّ وأن تكون هناك في فلسطين.

لن يطرح أفكاراً سينمائية أمام أحد بعد اليوم، سيحتفظ بأفكاره لنفسه، حتى تسنح الفكرة لإنجازها. فيلم «فلسطين أرض السلام»، سينجزه هو، فور عودته، ولن يخبر أحداً عن فحواه ومضمونه سوى الجهة التي ستتولى الإنتاج.

برلين، 21 تشرين الثاني 1941

يُفاجأ المفتي فور نزوله من السيارة، أمام مدخل المستشارية الألمانية الضخم، بعزف الموسيقى العسكرية، وبحرس شرف مؤلف من عشرات الجنود، مصطفين في الساحة.

لم يكن يتوقع أصلاً أن يكون لقاؤه مع الفوهرر في دار المستشارية، كان يظنه لقاءً خاصاً بعيداً على الاستقبالات الرسمية والمصورين والإعلام.

يشير إليه مرافقه بضرورة استعراض حرس الشرف، فيسير على وقع الموسيقى العسكرية، بخطوات موزونة، وهو يؤدي التحية العسكرية.

تتابعه كاميرا سينمائية. وهو يدخل إلى أروقة الدار الطويلة بأبهائها الفخمة، إلى أن يصل إلى قاعة الاستقبال الفسيحة. كان رئيس تشريفات الدولة بانتظاره. يجلسه دقيقة ثم يدخله إلى غرفة الفوهرر الخاصة.

يرفع المفتي يده محيياً، فيصافحه هتلر بوجه طلق وعينين معبرتين، وبسرور ظاهر. يدعوه إلى الجلوس قبالته. فتلتقط الكاميرات السينمائية والفوتوغرافيه هذه اللحظة التاريخية التي ستصبح مادة رئيسة في هجاء المسلمين والعرب والفلسطينيين، في أفلام ومقالات الحرب وما بعدها.

يتحدث هتلر بالألمانية، ويتولى الدكتور شميدت الترجمة للفرنسية. كان الفوهرر قد رتب أفكاره جيداً:

- إنني سعيد لسلامتكم ولوجودكم في بلاد المحور. ولقد تلقيت خبر نجاتك من أيدي عدونا المشترك بسرور عظيم، وبعد تلك الرحلة الطويلة الخطيرة من طهران إلى برلين. ولقد كنت في أشد القلق عليك، واعتبرت نجاتك نصراً وبشرى، وإني مطلع على تاريخ حياتك، ومقدر كفاحك في سبيل وطنك وأمتك، ولقدومك لإبداء رغبة الأمة العربية في التعاون معنا في الكفاح ضد الأعداء المشتركين. كما أنني مقدر، كل التقدير، كفاح عرب فلسطين، ذلك الكفاح الشعبي العظيم، الذي قاموا به ضد الإمبراطورية البريطانية واليهودية العالمية من دون نصير، إلا إيمانهم بحقهم، ودفاعاً عن وطنهم.

يصمت هتلر، فيرد المفتي بعبارات من الشكر والامتنان، ثم يبدأ حديثه عن العلاقات المميزة بين العرب والمسلمين والألمان منذ أيام السلطان عبد الحميد، وكيف أن قلوب العرب الآن متعلقة بألمانيا، لشعورهم بأن مصيرهم مرتبط بنتيجة الحرب.

يشرح المفتي بإسهاب دور بريطانيا التي خدعت العرب في الحرب الأولى، ونكثت عهودها لهم، ثم احتلت بلادهم، وأعطت وعداً لليهود بإقامة وطن قومي على أرض فلسطين.

وبعد عرض تاريخي مفصل، يصل المفتي إلى بيت القصيد، وهو عقد معاهدة رسمية صريحة بين العرب وألمانيا ودول المحور، تشتمل على مطالب العرب بالتحرر والسيادة والوحدة، وإلغاء فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وإعلان ذلك في الإذاعة، حتى تطمئن قلوب العرب، وتقبل بالتعاون مع دول المحور، في الحرب ضد الأعداء المشتركين.

لم تكن فكرة تعاون العرب مع دول المحور وألمانيا قديمة، كانت قد ولدت قبل عام تقريباً عندما كان المفتي في العراق يفكر مع رشيد عالي الكيلاني بطريقة لمجابهة القوات البريطانية التي بدأت تهدد باحتلال العراق. يومها، أوفد سكرتيره الخاص، عثمان كمال حداد، إلى برلين، يحمل المطالب العربية، ومشروع بيان رسمي حول سياسة دولتي المحور، ألمانيا وإيطاليا، نحو البلاد العربية.

وكما أخبره عثمان حداد عندما عاد، فإنه أجرى مباحثات في وزارة الخارجية الألمانية مع الدكتور فريتز غروبا، المبعوث الألماني للشرق الأدنى وسفير ألمانيا في بغداد، وميلشرز مدير القسم الشرقي، وويسيزكر سكرتير الدولة. أما المطالب العربية التي تقدم بها، فهي نفسها المطالب التي بسطها المفتي أمام الفوهرر.

يتوقف المفتي عن الكلام، فيبادر الفوهرر الذي كان يستمع جيداً لكلمات المفتي، مترجمة إلى الألمانية:

- إن خطط كفاحي واضحة، وهي أولاً، أنني أكافح اليهود بلا هوادة، ويدخل في هذا الكفاح ما يقال له «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، لأن اليهود إنما يريدون أن يؤسسوا دولة مركزية، تساعدهم على مقاصدهم التدميرية، ونشاطهم الهدام نحو دول العالم وشعوبه، وإنه لمن الواضح أن اليهود لم يقوموا بعمل إنشائي في فلسطين، وادعاؤهم هذا كذب، فإن كل الأعمال الإنشائية التي أقيمت في فلسطين يرجع فضلها إلى العرب، لا إلى اليهود. إنني مصمم على أن أجد حلاً للمشكلة اليهودية خطوة فخطوة وبدون انقطاع، وسأوجه الدعوة اللازمة إلى جميع البلاد الأوروبية، ثم إلى البلاد التي هي خارج أوروبا في هذا الشأن.

يُسهب هتلر في الحديث عن الخطر اليهودي الذي استطاع أن يوحّد أقصى اليسار، متمثلاً في الاتحاد السوفييتي، وأقصى اليمين، متمثلاً في الولايات المتحدة، للوقوف في وجه ألمانيا.

يعيد المفتي طلبه عقد الاتفاقية، فيجيبه الفوهرر بأنه يخوض حرب حياة أو موت، وأنّه سيلبي طلبه، فور فتح الطرق إلى شمالي القوقاز، فإن حدث ذلك، يكن الوقت قد حان لإذاعة التصريح الرسمي، لأن ساعة تحرير العرب تكون قد دقت.

يدرك المفتي أن الفوهرر لا يريد أن يعطي أي التزام رسمي علني قبل فتح طرق القوقاز، فيقترح عليه معاهدة سرية.

يحجظ الفوهرر بعينيه، وهو يرفع حاجبيه، قبل أن يجيب بنبرة حاسمة:

- أصدرت في حياتي تصريحات قليلة، على عكس الإنكليز الذين أصدروا تصريحات، وقطعوا عهوداً كثيرة لم يفوا بها، لكني إذا أصدرت تصريحاً أو عهداً ما فإنني أفي به. قلت، مرة لماريشال فنلندة، إنني سأساعد وطنه إذا هاجمه العدو مرة أخرى، وكانت هذه الكلمة أكثر من أي تصريح خطي، وقد التزمت بها، وأرسلت له جيوشي، على الرغم من عدم حاجتي لمثل هذه الخطوة.

في أيامه الأخيرة في بيروت، سيستعيد المفتي، وهو يتأمل في تلك المرحلة، كيف كان هتلر يتكلم بقوة وحماسة مع تؤدة ورزانة، وكيف كان حديثه واضح النبرات، فصيح الألفاظ، يشدّد على مخارج بعض الكلمات، كما يفعل القارئ، أو الخطيب العربي، عند لفظه حروف القلقلة.

سيستعيد لحظات اقتراب الفوهرر منه عند الحديث، وتوجهه إليه بشكل مباشر، محدقاً في عينيه، محركاً يديه وعضلات وجهه، وكيف كان يعطي هذا الانطباع القوي بأنه يعبر عما يعتقده من صميم قلبه.

سيقارن بينه وبين موسوليني، ذلك الممثل الفاشل، وغير المقنع، والذي كان يتحاشى التقاء العيون بالعيون.

يخرج المفتي من لقاء الفوهرر الذي استمر ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة، قلقاً، غير مرتاح.

لم يحصل على تصريح علني، ولم يظفر حتى بنص مكتوب ممهور بتوقيع.

في طريقه إلى مقر إقامته الجديد، في غوته شتراسه في ضاحية تسلندورف، خارج برلين، يدرك أن هتلر يخاف إغضاب الفرنسيين والأتراك؛ إن هو أعلن موقفا رسمياً من حقوق العرب. واضح أنه يعول على حياد فرنسا التي يعمل سفيره في باريس عليها بشكل دؤوب، ويطمح إلى ضم تركيا، المتعاطفة، بشكل رسمي إلى المحور.

يدرك المفتي الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أن السياسة لعبة المصالح، وأن هتلر لم يعطه شيئاً أكثر مما أعطاه هو. مجرد وعود ونيّات. هو وعد هتلر بتأييد عربي إن اعترف بحقوق العرب.. ومن هم العرب أصلاً؟ وماذا يملكون من أمرهم؟ هم في نظر هتلر أمة محكومة من بريطانيا وفرنسا ـ لا قوة عسكرية خاصة بهم، كالأتراك مثلا، ولا هم متحكمون بأراضيهم، فلماذا يعطيهم أكثر مما يستحقون؟

يمضي بعيداً في تداعياته. تلتمع في ذهنه فكرة قديمة جديدة، فيشتعل فرحاً.

لا بدّ للعرب من قوة يضعها الألمان في حساباتهم. لا مناص من جعل «الفيلق العربي» حقيقة واقعة على الأرض، تماماً كما حال «الفيلق اليهودي». ستكون نواته الصلبة؛ المجاهدين الذين رافقوه من فلسطين إلى بيروت وإلى بغداد. ألم يسعَ لدى حكومة العراق لقبول دورة للضباط الاحتياط من فلسطين وبلاد الشام في كليتها العسكرية، منهم عبد القادر الحسيني، وعبد الرحيم محمود، وجميل بركات، وفؤاد نصار، وعبد اللطيف القدومي، ومحمود علاء الدين، وداود العلمي، ومحمود التميمي، وعبد القادر زلوم، وذو الكفل عبد اللطيف؟

سيكون فيلقه أكبر، وأكفأ، من «الفيلق اليهودي»، وسوف يخوض حرب تحرير فلسطين وبلاد الشام والعراق من ربقة الاستعمار.

روما، 19 شباط 1942

على غير عادته، يخرج محمد صالح الكيالي من مدرسة السينما مبكراً ومسرعاً، الساعة لم تبلغ الثانية عشرة ظهراً. يغذ السير باتجاه محطة الترموا ي. تصادفه مسيرة لطلاب الباليلا، ذلك النظام الذي أسسه الدوتشي لتربية أطفال إيطاليا، تربية رومانية فاشستية.

يرفع الطلاب صور موسوليني على أنغام مارشات عسكرية. دون أن يدري، يجد نفسه وسط الفتية المتحمسين الذين لا يعيرونه أدنى اهتمام. يتوقف في مكانه فيتجاوزونه إلى منعطف يفضي إلى إحدى الساحات الرئيسة، حيث يتجمع فتية مثلهم، من باقي أنحاء المدينة.

ثمة أجواء احتفالية في كل مكان. ينتبه الكيالي لوقفته التي طالت قليلاً وهو يراقب الرتل المبتعد، فيقرر المضي في الاتجاه المعاكس، حيث المحطة التي ستقله إحدى قاطراتها إلى فيلا كولونا، على جبل مونتي ماريو، المشرف على المدينة، مقر إقامة المفتي، بعد فيلا سكارلاتي.

هاتفه صديقه القديم منذ أيام فرق الكشافة، ذو الكفل عبد اللطيف، على هاتف المعهد، ليخبره بأنه وصل صحبة عدد من زملائه الضباط العرب، لحضور حفل عسكري كبير في ساحة فينيسيا، وأن موسوليني نفسه، وجه الدعوة للمفتي لحضور تكريم الضباط والجنود الإيطاليين،

الذين أبلوا بلاء حسناً على جبهات القتال. وأن المفتي استدعاه على عجل، من أثينا التي يعمل فيها مديراً لإذاعة العرب الأحرار.

يصعد عربة القطار، شبه الفارغة، ويمضي إلى محطة روما بلادونيا، أقرب المحطات إلى فيلا كولونا.

يصل متأخراً عن موعده؛ فيجد ذو الكفل بانتظاره أمام الباب. يتعانقان بحرارة. لم يلتقيا منذ أعوام، عندما غادر ذو الكفل مع من غادروا فلسطين، بعد انتهاء ثورة عام 1936.

كان ذو الكفل يرتدي بزّة ضابط ألماني، ويضع رتبة ملازم.

يدخل ذو الكفل أولاً، يتبعه الكيالي.. وإذ بالمفتي جالساً بين جمع من الحضور، معظمهم يرتدون الزي العسكري. يُقبل الكيالي بحرارة على المفتي، لم يره منذ خمسة أيام. يتعانقان ويتبادلان القبل وعبارات الترحيب والمجاملة، يفسح المفتي له مكاناً إلى جانبه.

يؤخذ الكيالي بأبهة المكان وعظمته، فيخبرهم المفتي بقصة هذا القصر، ولماذا سمي فيلا كولونا، نسبة لأحد قادة الصليبيين الكبار. كان هذا القائد قد حمل معه، من القدس، عندما عاد إلى روما، العمود الذي يقال إن السيد المسيح جُلد عليه، وقدمه هدية للبابا. فمنحه البابا لقب «برنس كولونا». وتوارثت الأسرة هذا اللقب مع الثراء العريض، والنفوذ الكبير منذ ذلك التاريخ.

بعد قليل ينظر المفتي إلى ساعته، ويخاطب المحيطين به:

- يجب أن نتحرك، فبدء الاحتفال بعد أقل من ساعة، ولا بد أن نكون في مقدمة الحضور.

يخرج المفتي، ومعه السياسيّون والضباط والكيالي. يستقلون سيارات خاصة، أرسلتها وزارة الخارجية الإيطالية، ويمضون باتجاه ساحة فينيسيا.

يخترق المفتي وصحبه الحشود ويصلون بعد جهد جهيد، إلى مقدمة الصفوف.

يستقبلهم ضابط تشريفات، يقودهم إلى مكان مرتفع، يشرف على صفوف الجنود المحتشدين، وفي الأفق، تعطي الأعلام الفاشية والأناشيد الحماسية وصور موسوليني للمكان، تشكيلة من الألوان المتنافرة.

كاميرات السينما تجوس المكان جيئة وذهاباً، تصور أدق التفاصيل، ومنها تفصيل جلوس المفتي ورفاقه.

ينتبه المفتي لهذا التفصيل من المشهد العام، فيلتفت إلى الكيالي، وهو يقول مبتسماً:

- الكاميرا في كل مكان، هكذا نريدك أن تعمل عند العودة إلى فلسطين، ينبغي أن تصور كل شيء، ينبغي أن توثق الأحداث لأننا في حاجة لأن نُسمع صوتنا للعالم.

لم يسمع الكيالي الجملة الأخيرة بسبب ضجيج المارشات العسكرية وهتافات الجماهير، فيطلب من المفتي تكرارها.. فيكررها المفتي بصوت أعلى:

- لأننا بحاجة لأن نسمع صوتنا إلى العالم.

يفهم الكيالي كلمة العالم، فيرد بسؤال:

- أي عالم؟

يهم المفتي بالإجابة، فتعلو الهتافات ويبدأ التصفيق. وصل موسوليني إلى الشرفة.

تهرع كاميرات السينما إلى هناك، ويبدأ الدوتشي بإلقاء خطابه، قبل أن يبدأ حفل توزيع الأوسمة.

قبل أيام من هذا الحفل، وصل المفتي إلى روما، زار صحبة رئيس الوزراء العراقي، الهارب، رشيد عالي الكيلاني، والكونت شيانو، مدارس الباليلا، واطلع على التربية الفاشستية التي التزم فيها ستة ملايين طفل، كانوا يتلقون تربية بدنية وعسكرية.

كان الكيالي ضمن فريق التصوير الذي رافق المفتي والكيلاني، وهم يتجولون في هذه المدارس، التقطت الكاميرات إعجابهم بالرقصات التعبيرية، وتمارين الجمباز للفتيات الصغيرات في ساحات المدارس الكبيرة، ومبارزات الفتية بالسيف والترس، على طريقة فرسان العصور الوسطى.

بعد أيام سيخبره رشيد عالي الكيلاني، عن تلبيته دعوة من السيدة إليزابت سرسق، المعروفة باسم سنيورة كولونا، زوجة الأمير اندريا كولونا، لحضور حفل في أحد قصور العائلة وسط روما، وكيف أقامت للحاضرين من الأمراء والوزراء والأثرياء وليمة، لم ير مثلها من قبل.

سيخبره كيف كان الكونت شيانو نجم الحفل، وكيف كانت هذه السيدة اللبنانية، تحيط الكونت برعاية خاصة، وتنتحي به جانباً، وتحدثه أحاديث يطرب لها، وتملؤه نشوة.

سيُسِرُّ له الكيلاني بأمر غاية في الخطورة. سيهمس له بأن السيدة كانت تصف الكونت شيانو بأنه مستقبل إيطاليا. وأنه الرجل الذي يثق به الحلفاء لإنقاذ إيطاليا من مأزقها، حتى قبل أن تلعب الخمرة بالرؤوس!

بعد عام، سيتذكر المفتي حديث الكيلاني هذا عن سنيورة كولونا، حين يُقبض على موسوليني خلال اجتماع المجلس الفاشستي الأعلى، في قصر

الملك إمانويللي، وكيف خذله الكونت شيانو، أقرب المقربين إليه، هو وباقي أعضاء المجلس، وأودعوه معتقلاً سرياً في حصن جبل ساسو ثلاثةً وخمسين يوماً، قبل أن ينقضَّ الضابط الألماني الشهير سكورزيني كالصقر، بطائرته الشراعية على الحصن، ويحرره من الأسر، في مشهد كأنه انتزع من فيلم سينمائي، ليعود إلى الحكم من بوابة ميلانو، منهياً النظام الملكي، ومعلناً إيطاليا جمهورية فاشية.

سيتذكر المفتي، سنيورة كولونا، عندما تأتيه أخبار إعدام الكونت شيانو، على الرغم من توسلات زوجته إيدا لأبيها، أن يصفح عنه لأجلها، ولأجل أطفالهما.

سيعلم، فيما سيأتي من الأوقات، أن إليزابت سرسق هذه كانت تعمل لصالح مخابرات إحدى دول الحلفاء، وبأنها استطاعت بدهائها، وحفلاتها الباذخة لكبار الضباط والسياسيين، وبوعودها السخية لهم بالمناصب والامتيازات القادمة، أن تقلب الطاولة على رأس الدوتشي. ساعدها في مهمتها تلك انهيار المعنويات بعد الهزائم المبكرة، على الجبهات كافة، واستشراء الجوع والبطالة.

وسيعلم أيضاً، في أثناء إقامته في برلين، أدقَّ الأسرار عن حالة الدوتشي، بعد اعتقاله في جبل ساسو. سيخبره أحدهم بأن الدوتشي موسوليني كان منهاراً حين قابله هتلر، بعد تحريره من الأسر، وأن الفوهرر فوجئ بحالته المزرية، وبإحجامه عن التفكير في العودة إلى الحكم، وزهده في ملاحقة المنقلبين عليه في روما، ورغبته في اعتزال السياسة نهائياً. سيعلم كيف انتهره هتلر وهدده بحرق ميلانو، إن لم يعد ويعلن الجمهورية الفاشية، من هناك من الشمال.

سيعلم أيضاً وأيضاً، أن قرار إعدام المنقلبين عليه كان ألمانياً، وأنه ارتضى أن يمضي أيامه، في حكم «الجمهورية الفاشية» من قصر بعيد، على ضفاف بحيرة غاردا، في منطقة نائية محصورة بين فينيسيا وميلانو، تصلح لكل شيء، إلا للحكم.

سيقرأ في إحدى الصحف الفرنسية مقابلة مع الدوتشي، يقول فيها للصحفية التي قابلته في قصره المنعزل، في مطلع عام 1945، حين كان منشغلاً بكتابة شيء من يومياته ومذكراته، وهو يتابع، بحزن وانكسار، أخبار الهزائم، وفقدان الأراضي، وانهيارات جيوشه المتلاحقة:

- نعم سيدتي، كنت قبل سبع سنوات شخصاً ذا أهمية، أما الآن، فلست أكثر من جثة. نعم سيدتي، لقد انتهيت وأفل نجمي، لم أعد لاعباً. أنا مجرد متفرج، ينتظر بملل نهاية المأساة.

مقاطعة سيليزيا، 17 نيسان 1943

يترجل المفتي من عربة مدرعة ألمانية أقلته إلى معسكر «نوي هامر» في مقاطعة سيليزيا البولندية، والتي كانت جزءًا من بروسيا القديمة.

صمم قائد قوات الـ«إس إس»، هنريش هيملر، على أن يرعى المفتي بنفسه تخريج الدفعة الأولى من المقاتلين البوسنيين المسلمين الذين سبق له أن نادى بتدريبهم لحماية أنفسهم من هجمات عصابات الشيتنيك الصربية المتوحشة، بقيادة الجنرال دراغا ميخايلوفيتش.

كان ميخايلوفيتش قد أصدر تعليماته لعصاباته، في الثاني من كانون الأول في عام 1941، وشرح فيها أن القصد من كفاح الصرب هو إيجاد حدود مشتركة بين صربيا والجبل الأسود، وبين صربيا وبلاد السلوفينيين، بتطهير سنجاق يني بازار من المسلمين، وتطهير البوسنة والهرسك من المسلمين والكروات. وبعد أن اجتاح الجيش الألماني يوغوسلافيا واحتلها، اعتصم ميخايلوفيتش مع صفوة ضباطه وجنوده في الجبال الشاهقة، وتحيَّن الفرص للانقضاض على الشعب البشناقي الأعزل، فأمعنت عصاباته، بالقتل والفتك من دون شفقة أو رحمة، حتى أربى عدد القتلى على مائتي ألف.

ثمة كاميرات سينمائية تصور أفلاماً ملونة، يحملها مصورون بلباس عسكري ينتشرون في زوايا المكان الأربع.

يصطف مقاتلو «فرقة خنجر» البوسنيون، بقبعاتهم الطويلة المميزة المستوحاة من الطرابيش العثمانية.

يستعرض المفتي الجنود، صحبة الجنرال زاوبر تسفايغ قائد هذه الفرقة التي بلغ عدد منتسبيها مع الفرقة الشقيقة لها المسماة «فرقة قاما»، سبعة وثلاثين ألف جندي.

يرفع يده، ويمشي بخطوات موزونة على وقع الموسيقى العسكرية . يربت على خد جندي صغير بعطف أبوي. تلتقط الكاميرا هذا التفصيل، الذي سيصبح بعد سنوات، واحداً من أهم اللقطات في الدعاية المضادة للعرب والمسلمين.

أخيراً، أصبح لمسلمي البوسنة قوات تدافع عنهم، بعد أن تركهم العالم يذبحون ذبح الشياه، من دون أن يرف له جفن.

تذكر، وهو يستعرض الجنود، تلك الليلة التي هاتفه فيها الطالب البوشناقي في جامعة روما مصطفى بوصولاجيتش، ليلة التاسع عشر من كانون الأول من العام الماضي، وهو يجهش بالبكاء، وتخنق العبرات كلماته.

كانت أخبار المذابح قد وصلت إليه قبل ذلك في برلين، من سيراييفو، في برقية مستعجلة من صديقه، أحمد أفندي قره بيك، ومن مفتي الهرسك حافظ عمر أفندي جاييتش الذي قابله في فيلا غوته شتراسه، وشرح له ما يجري في تلك البلاد من إبادة للمسلمين. وحين راجع وكيل وزارة الخارجية، الهر وايسيزكر، بالأمر، وأطلعه على البرقيات المرسلة من زعماء البوسنة الذين يطلبون السماح لهم بزيارة برلين للقاء المفتي فيها، أخبره

وايسيزكر هذا، ببرود غريب، أن المنطقة التي يتحدث عنها واقعة ضمن المجال الحيوي الإيطالي، ولا بدّ من مراجعة الحلفاء الطليان.

كيف يمكن له أن يصدق هذه المزحة السمجة: «المجال الحيوي للطليان!». مع ذلك، سافر إلى روما في اليوم نفسه، ووصل متأخرا إلى فيلا كولونا، وبات فيها تلك الليلة التي تلقى فيها اتصال بوصولاجيتش، وهو يبكي.

تذكر لقاءه مع الدوتشي في قصر فينيسيا، والذي استمر ساعتين، كان الكونت شيانو خلاله واقفاً على قدميه، وكيف أخبره عن أخبار المذابح الفظيعة في تلك المناطق، والتي تضم تسع فرق إيطالية، وفرقتين ألمانيتين من قوات المحور.

قال للدوتشي بغضب وحزن كبيرين: لو حدث جزء يسير من هذا في الشرق للأوربيين، لقامت الضجة العظيمة والدعايات والتهم.

تذكّر المفتي، وهو يحاول أن ينام تلك الليلة في معسكر «نوي هامر»، كيف ارتبك الدوتشي، وحار جواباً فيما يقول له من حقائق تفقأ العين. وكيف توجه بوجل، وقلة حيلة، إلى الكونت شيانو، الواقف إلى جانبه، وطلب منه الاتصال بالسفير الألماني في روما، الهر فون ماكنزن، للاستيضاح عن الموضوع، والطلب من الألمان أن يتخذوا التدابير الكفيلة بوقف المذابح.

تذكّر بمرارة، كيف عاد إلى برلين في تلك الليلة، وكيف أن أخبار المذابح لم تتوقف، بل بلغت مائتي ألف قتيل ومائتي ألف مشرد.

تذكّر بحزن شديد كيف منع الألمان، للمرة الثانية، وفد مسلمي البوسنة من زيارة برلين. وبرود وكيل وزارة الخارجية، وايسيزكر، في اللقاء الثاني

معه، حتى بعد أن أخبره عن ارتباك الطليان، وأن موسوليني نفسه استفسر عن الأمر من السفير الألماني في روما.

تذكر اللؤم الغريب في عينيه؛ ونبرة صوته وهو يخبره بمعارضة الحكومة الألمانية سفره إلى تلك الديار، متذرعاً بموافقات الإيطاليين والكروات.

تذكر كل الذرائع التي وضعها وايسيزكر وباقي موظفي الخارجية، في وجهه، لمنعه من زيارة سيراييفو، وإصراره الذي لم يلن، ونجاحه في الوصول إلى تلك المدينة، على الرغم من العاصفة الثلجية والذرائع الأمنية.

يومها، ولدت في رأسه فكرة تجنيد البشناق لحماية أنفسهم وعائلاتهم. تذكر كيف أجرى اتصالاته مع قادة قوات الـ«إس إس»، حتى أقنعهم بالفكرة. وقبل مغادرته سيراييفو، كان سبعة آلاف شاب قد كتبوا أسماءهم في قوائم المتطوعين.

سيتذكر، في فترات لاحقة من إقاماته الجبرية وشبه الجبرية في أكثر من مكان، كيف عاد إلى برلين، وعقد بنفسه مع الألمان اتفاقية إنشاء القوات البوسنية، متضمنة بنوداً واضحة تمنع نقلهم إلى خارج حدود بلادهم، وعدم تكليفهم بأي مهمة غير الدفاع عن أنفسهم وأملاكهم.

سيتذكر، بعد سنوات، بحزن وأسى، كيف أنه لم يستطع منع الألمان من دعم الجنرال دراغا ميخايلوفيتش. الذي استأنف ذبح المسلمين بسلاح ألماني هذه المرة، بذريعة وقوفه ضد الزعيم الصاعد المؤيد للحلفاء، جوزيف بروز تيتو. وكيف سيق الجنود البشناق المجندون أساساً لحماية شعبهم، إلى جبهات القتال ليلاقي كثيرون منهم مصيره الحزين في صحارى الثلج الروسية.

برلين، 29 تموز 1943

سماء برلين صافية، وشمس منتصف الظهيرة حارقة، كأنها شمس يا فا.

منظر الحقول الخضراء المفتوحة على المدى، والأشجار التي تقطعها بين حين وآخر، والذي يبدو من نافذة القطار بهيجاً للغاية، لا ينجح في تبديد الحزن والهموم التي تراكمت على صدره.

وصل محمد صالح الكيالي إلى برلين قبل يومين، مصطحباً أغراضاً قليلة، شبه هارب، بعد الفوضى التي اجتاحت روما مع أخبار خطف الدوتشي واختفاء آثاره.

انتهت دراسته في مركز السينما قبل شهر، وحصل على الدبلوما، والآن، أُغلق معهد لوتشييه، ولم يعد ثمة سبب للبقاء. كان عليه أن يحسم أمره خلال يوم واحد، أن يعود إلى يافا ويتعرض للاعتقال، أو أن يقصد برلين، حيث المفتي والأصدقاء، فقرر التوجه إلى برلين.

يصل إلى محطة غوته شتراسه، حيث ينتظره سائق من جانب المفتي، بعد أن هاتفه، وطلب لقاءه.

يستقبله أحد الخدم على مدخل الفيلا، ويصحبه إلى المفتي، الجالس في حديقة الفيلا أمام البحيرة الصغيرة، غارقاً في أفكاره.

ينتبه فجأة إلى وصول الكيالي، فينهض مكتفياً بالمصافحة، وحزن دفين في عينيه.

يجلس الكيالي في الجهة المقابلة.

يهيمن الصمت على الجلسة، فيقطعه المفتي:

- إذن اعتقلوا الدوتشي.

يهز الكيالي رأسه بحزن:

- نعم، وأغلقوا فيلا كولونا، ويقولون إن سنيورة كولونا كانت وراء أمر الإغلاق، وأنها ستستعيدها.

يبادر المفتي بنبرة أسى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. لا أخفيك يا صالح، تنتابني مشاعر متناقضة في هذه اللحظات.. لا أعرف ماذا أقول بهذه المناسبة. الرجل أكرم وفادتنا، وأحسن استقبالنا، وأضافنا في خير أحياء روما، وسهّل دخولنا وخروجنا، ولم يمتنع عن لقائنا في أي وقت طلبناه. لهذا، أشعر بالحزن عليه. لكنني، عندما أتذكر ما حلّ بإخوتنا الليبيّين على يد جنوده من قتل وتهجير، وكيف ذُبح البشناق على مرأى من جنوده، أشعر بالأسى الشديد، وتلحُّ علي الأسئلة المتشككة: هل كان صديقاً محباً للمسلمين، أم أن مشاعره كانت لغايات سياسية، ونكاية بأعدائه الإنكليز؟ أخبرني بأنه درس الإسلام جيداً، وأنه أعجب بسماحته وعدله، لم أسأله متى حصل ذلك، قبل مآسي ليبيا أم بعدها؟

- ما الفرق؟

- الفرق كبير، إن كان قد درس الإسلام قبل مذابح ليبيا فهو منافق كذاب. أما إن درسه بعد المذابح والفظائع، وتغير رأيه حقاً، فعندها، يمكن النظر في هذا الأمر، ويمكن تصديقه.

يتذكّر الكيالي المشاهد السينمائية التي التقطت لموسوليني في ليبيا، خصوصاً مشهد رفعه «سيف الإسلام»، وهو يمتطي حصاناً عربياً:

- لكنه لم يفعل شيئاً لمسلمي البوسنة وهم يذبحون تحت أنظار جنوده، على الرغم من أنه حامي الإسلام والمسلمين.

لم يفاجئ المفتي تعليق الكيالي المباغت. كانت هذه الفكرة تؤرقه حقاً، مذ رأى بنفسه برود الألمان والطليان، وتواطؤهم مع القاتل. ولم يشأ حتى أن يعلّق على تلك الفكرة السخيفة، والمبتذلة إلى أقصى الحدود، والتي كان بعضهم يرددها عن جهل أو عن غباء، ورددها الكيالي ساخراً، أنَّ موسوليني كرس نفسه حامياً للإسلام والمسلمين.

ترتسم على وجه المفتي مسحة حزن ويأس وضياع، وهو يرتجل حديثاً، كأنه يخاطب فيه نفسه:

- لكن، هل كان أمامنا طريق آخر، وقف العالم الغربي كله إلى جانب أعدائنا، ولم يقف إلى جانبنا أحد. قتلونا وشردونا وتقاسموا أرضنا فيما بينهم، والعالم كله ينظر إلينا من دون أن يرفّ له جفن. لم يكن أمامنا طريق آخر يا صالح. حشرونا في زاوية، واستلوا السكاكين لذبحنا، فما عسانا نفعل؟ أليس لدينا أظافر؟ هل تركوا لنا خياراً آخر؟ هل تركوا لنا فرجة صغيرة للنجاة؟ لا أظن ذلك. لم يكن أمامنا إلا هذه الطريق، طريق روما وبرلين.

يهز الكيالي رأسه موافقاً بحزن:

- لكنهم أدخلونا في معاركهم. نحن ما علاقتنا بقتال الروس، لماذا يرسلون ضباطنا وجنودنا الذين دربوهم إلى روسيا. لماذا لا يرسلونهم إلى فلسطين.

ينهض المفتي فجأة، وملامح الغضب تتكاثف بين عينيه، وهو يتّجه نحو البحيرة:

- لن أسمح بإرسال جندي عربي واحد إلى أي جبهة في أوروبا، نحن في أمَسِّ الحاجة إلى شبابنا في قتال عدونا.

ينهض الكيالي متتبعاً خطوات المفتي:

- التقيت في اليومين الماضيين صديقيّ، حسن سلامة وذو الكفل عبد اللطيف، وحدثاني عن مخاوفهما من أن يرسلوهما إلى جبهات القتال الأوروبية.

يلتفت المفتي بحزم:

- حدثاني عن مخاوفهما، وأخبرتهما بأنني لن أسمح بذلك. كنت مع هيملر قبل أيام، وأطلعته على مخاوفنا، وأكدت عليه أن هذا الأمر خط أحمر، وإن كان لا بدّ من مشاركة الفيلق العربي في الحرب إلى جانب قوات المحور، فلتكن في فلسطين، هناك أيضاً توجد قوات للحلفاء!

كان هذا الأمر أكبر هاجس يؤرق المفتي، ويمنعه من النوم. كان سيشعر بذنب كبير، ولن يغفر لنفسه أبداً، لو أنهم ساقوا «الفيلق العربي» إلى جبهات القتال في روسيا وغيرها، ليلاقوا مصير أشقائهم البشناق. سعى لتجنيدهم وتدريبهم لمواجهة «الفيلق اليهودي» المدعوم من قوات الحلفاء، في فلسطين، وفي فلسطين فقط.

يستعيد المفتي، وهو يودع الكيالي، لقاءه الأخير بهيملر، يحاول أن يفهم، وهو يعود إلى الجلوس أمام البحيرة، أي نوازع تحرك هؤلاء؟ ولماذا لا تعنيهم أرواح البوسنيين، ولا الليبيين، ما سبب كل هذا الحقد على اليهود. يتذكّر برعب الرقم الذي ذكره هيملر عن عدد الذين قضى عليهم من يهود أوروبا حتى ذلك التاريخ، ثلاثة ملايين ونصف المليون.

حتى في لغة الحساب هو رقم كبير جداً.

يتذكّر سؤال هيملر المباغت، وأنتم كيف ستصفُّون قضية اليهود في بلادكم؟ أجابه بعفوية أثارت حفيظته:

– لن نقتلهم، يهودنا عندنا، عاشوا بيننا قروناً طويلة، وبيننا وبينهم عهود ومواثيق منذ زمن الفتوحات الإسلامية، أما يهودكم، فلا نريد منهم سوى أن يعودوا إلى البلاد التي أتوا منها، وأن يقلعوا عن فكرة الوطن القومي على أرضنا.

يتذكّر نظرات هيملر القلقة، وملامح الغضب التي نزلت عليه فجأة، وجوابه الغريب:

– أما نحن، فلن نسمح لهم بالعودة إلى ألمانيا أبداً.

سيستعيد بعد سنوات قليلة، في أثناء محاكمات نورمبرغ، والمحاولات المحمومة من دوائر الصهيونية لزجه فيها، تلك الواقعة الغريبة المستهجنة التي وضعت كل تصوراته حول النازيين والحلفاء ومواقفهم من اليهود موضع الشك والمساءلة. سيتذكّر كيف اتفقت ألمانيا مع المنظمة الصهيونية، في عام 1944، على تهجير أربعمائة ألف يهودي من أوروبا الشرقية إلى فلسطين، وكيف بذل الجهود المستحيلة، مع هتلر وهيملر وإيطاليا وتركيا ورومانيا وبلغاريا وهنغاريا، لمنع هذه الهجرة. وكيف حاولت الحركة

الصهيونية تحميله المسؤولية عن احتمال قتل هؤلاء فيما بعد. القتلة الحقيقيون لا أحد يذكرهم!

فقط، لأنه حاول منع تهجيرهم إلى فلسطين، وطالب بتوجيههم إلى أي مكان آخر، أصبح مجرماً مداناً في نظر الصهاينة! أما الذين منعوا هجرتهم إلى أي مكان آخر في العالم، أكثر أمناً من فلسطين، فكانوا أبرياء وحلفاء!

سيتذكّر الأسئلة الملحة التي كانت تمنعه من النوم في تلك الأيام. لماذا علينا أن ندفع نحن، ونحن فقط ثمن ذلك؟ لماذا يقتلونهم أصلاً؟! ولماذا لا ينقلونهم إلى دول التحالف، إن كانوا حقاً إنسانيين إلى هذا الحد؟ لماذا لا يستقبلونهم في الولايات المتحدة أو أستراليا أو حتى في بريطانيا أو فرنسا؟ لماذا سمحوا بذبحهم؟ وكان ثمة متسع من الوقت لمنع الألمان من ذلك، لماذا؟

لا أحد يجرؤ على التساؤل: من الذي صاغ تلك المعادلة الجهنمية، والتي أصبحت قانوناً يسري على الجميع، من دون أن يجرؤ أحد على مناقشته. الهجرة إلى فلسطين أو الموت!

برلين، 21 حزيران 1944

تتلبّد السماء بالغيوم الداكنة؛ فتحجب الشمس التي بشرت بنهار داقئ، تتكاثف الغيوم أكثر فأكثر فيلمع البرق، ويقصف الرعد، ثم تبدأ زخات المطر بالتساقط، مثل سلاسل فضية.

يركض محمد صالح الكيالي وذو الكفل عبد اللطيف إلى أقرب مظلة لموقف ترومواي، إذ ارتديا ألبسة خفيفة، عندما شاهدا سطوع الشمس وصفاء السماء، قبل خروجهما من المنزل.

يخلع ذو الكفل قبعته وينفضها من رذاذ المطر، فيشعل الكيالي سيكارة، ويستأنف حديثاً يبدو أنه طويل:

– أخشى أن تفاجئنا نتيجة الحرب النهائية، كما فاجأتنا الأمطار، دون معاطف مطرية، ولا مظلات.

يمتقع وجه ذو الكفل الذي يعاجل الكيالي، بصوت مرتفع ونبرة غاضبة، قبل أن ينهي كلامه:

– منذ البارحة، ولم أفهم ماذا تريد بالضبط، لم أفهم سوى أنك بدأت تُدخل اليأس إلى نفسي. يا أخي، هل لديك بديل؟ هل هناك أحد ما في هذا العالم يمكن أن يمدّ لنا يد العون، إن تركَنا أبو علي هتلر؟

يشيح الكيالي بوجهه إلى الجهة الأخرى، بانزعاج:

- يا أخي، ماذا لو خسر الألمان الحرب؟ وهم بدأوا يخسرونها فعلاً، هل لدينا بدائل أخرى؟ الألمان الآن في وضع صعب، ووضعهم العسكري ليس كما كان قبل ثلاث سنوات، هم الآن في حالة تراجع، ونحن وضعنا كل آمالنا فيهم. هذا كل ما في الأمر، لست متضايقاً من انتصار الألمان، بل على العكس هذا أقصى ما أتمناه، لكن الوضع الآن لا يبشر بالخير.

ينتبه ذو الكفل إلى لهجته الهجومية، فيعدلها ويأخذ الحديث إلى مكان آخر:

- أخيراً، وافق الألمان على خطتي التي عملت عليها سنوات وسنوات. كما تعلم أنا وباقي الضباط والجنود العرب رفضنا القتال على الجبهة الروسية.

يقاطعه الكيالي بحماس:

- نعم، والفضل في ذلك للمفتي فقد أوقف القرار، وجعل الألمان يعيدون النظر فيه.

يهز ذو الكفل رأسه هزات خفيفة:

- نعم للمفتي الدور الأكبر في إنهاء هذه المهزلة، لكن الألمان أنفسهم أدركوا عبثية هذا القرار، لأنهم أدركوا أن العرب لم يتطوعوا إلاّ بدافع تحرير بلادهم، وليس للقتال على جبهة لا ناقة لهم فيها ولا جمل. هل تعلم أنهم شرعوا فعلاً في التنفيذ، وساقوا الذين كانوا يتدربون في معسكر باليرمو إلى ستالينو؟

- حقاً؟!

- نعم، ولم يصل إلى هناك سوى ضابط واحد، هو ممدوح الميداني، وبضعة جنود، إذ تسللوا تباعاً بما تيسّر لهم من مواصلات بطيئة عائدين، كلٌّ

إلى مكان آمن بعيداً عن الألمان. ناهيك عن أجواء هذه الجبهة التي لا تتناسب وطبيعتهم. حدثني ممدوح الميداني عن معاناتهم، وكيف أصيبوا في معظمهم بالأمراض والتقلصات المعوية نتيجة البرد الشديد.

يعود الكيالي مستوضحاً عن الجملة الأولى التي تجاوزها الحديث عن القتال على الجبهة الروسية:

- منذ البارحة، وأنت تلمّح إلى خطة وضعتها، وتريد أن تنفذها، ما هي هذه الخطة؟

- لا أستطيع البوح بها.

- لكني صديقك ورفيقك منذ أيام الكشافة، وليس بيننا أسرار.

- هذه أسرار عسكرية، لا ينبغي عليّ البوح بها. لكن، ولأنك عزيز على قلبي، سأعطيك فكرة عامة عن الموضوع. يا سيدي، كنت قد فاتحت سماحة المفتي بموضوع إرسال رجال وسلاح إلى فلسطين، في أول لقاء بيننا في برلين، حين استدعاني من اليونان للإشراف على القسم العربي في إذاعة برلين، وكنت أراجعه في الموضوع بين حين وآخر، وكان يقول لي إنه يبحث الأمر مع الألمان، لتهيئة أسباب تحقيقه. لكن، كان الألمان يماطلون، إلى أن عيل صبري عندما انشغل بتجنيد المسلمين اليوغوسلافيين، ففاجأته أمام الإخوان بقولي: أخشى أن يكون انشغال سماحتكم بحشيشوف وميشيشوف قد أنساكم قضية فلسطين، فأربد وجهه وتجهم، وقال: أنا لم ولن أنسى قضية فلسطين، وسترى. وبعد أيام، استدعاني ووصلني مع المشرف الألماني على العملية.

يبدو الضيق على وجه الكيالي، فقد عيل صبره من استطراد ذو الكفل:

- لكن، ما هي هذه العملية؟

- إنزال جوي بالمظلات في فلسطين.

تعلو الدهشة وجه الكيالي الذي يبدو غير مصدق، فيتابع ذو الكفل حديثه بثقة:

- نعم سوف نهبط بالمظلات؛ أنا وأبو علي سلامة وثلاثة ضباط ألمان، أظنك تعرفهم، هم راينغر من المستعمرة الألمانية في حيفا، وفرانك من الجالية الألمانية في القدس، وفيلاند من كولونيا، مع أسلحتنا وذخائرنا في غور أريحا، وسوف نبني قوة لمقاومة الإنكليز واليهود، وسوف لن يتوقف الدعم عنا من الطائرات الألمانية التي ستزودنا بين حين وآخر بكل ما يلزمنا لتأسيس جيش فلسطيني.

يبتسم الكيالي ابتسامة خفيفة، كأنه يعيش حلماً جميلاً:

- هل هذا الكلام حقيقة أم خيال؟

يقطب ذو الكفل حاجبيه، ويقول بحزم:

- مؤكد أنه حقيقة، وستسمع الأخبار في فترة قريبة، إن لم تكن أياماً فأسابيع، كل شيء جاهز، وعملية هانيبال ستنفذ كما وضعتها بالضبط.

تتوقف الأمطار، وتنتهي سيكارة الكيالي الثالثة، فيغادران مظلة الموقف، ويسيران في الشارع المبتل. يضع ذو الكفل قبعته، ويتابع الكيالي حديثه الحالم:

- لو تتاح لي فرصة تصوير عملية الإنزال، منذ لحظة الصعود إلى الطائرات إلى لحظة الهبوط، ستكون ضربة قوية، هل هناك إمكانية لذلك؟

- سأسأل لك، لكنني لا أظن أن ذلك ممكنٌ.

ينتبه ذو الكفل إلى أنه أفشى سراً عسكرياً، لم يكن ينبغي أن يفشيه، فيقطب فجأة:

– آه، مستحيل أن تذهب معنا، لأنه لا ينبغي لأحد أن يعلم بالأمر، وأنا تجاوزت كل القوانين.. لو علموا بأني أخبرتك، فحتماً ستلغى العملية، وستتم محاسبتي. لا، لن أطلب منهم أي شيء بشأنك.

– لكن، اسألهم هل ستصورون العملية، ومن سيصور؟

يشعر ذو الكفل بأنه تورط بشيء خطير، فيزداد ارتباكه:

– أقسم لي أنك لن تخبر أحداً.

يبتسم الكيالي بهدوء، وينظر إلى ذو الكفل المرتبك من الأسفل إلى الأعلى:

– اطمئن، سرّك في بئر عميق.

في سنوات الخمسينيات، وخلال لقاءاتهما في كافتيريا غروبي وسط القاهرة، سيروي ذو الكفل للكيالي تفاصيل قصة الإنزال الفاشلة للطائرتين الألمانيتين.

سيخبره كيف انحرفت الطائرة التي كانت تقله، وصحبه، عن خط سيرها بسبب رياح شمالية شديدة القوة، وكيف تم إنزالهم في وقت مبكر، من ارتفاع كبير جداً يصل إلى ثمانمائة متر، بدلاً من ثلاثمائة متر، المتفق عليها. وفي مزارع الموز في وادي القلط، بين دير حجلة وأريحا والبحر الميت، بدل البقعة المالحة الجرداء التي خططوا للهبوط فيها، وكيف أسقط الطيار الثاني الذخائر والمعدات دون استشارة أحد. وكيف التقى، هو وشميدت فرانك فقط، في الليلة نفسها، وبعد الإسقاط مباشرة، وكيف حاولا عبثاً العثور على أبو علي حسن سلامة، أو على هشت فيلاند، أو على شيفر داينغر. وكيف لم يجدا في تلك الليلة أي كيس من الأكياس التي جلبوها معهم من نماذج

الأسلحة المتعاقد عليها، والأجهزة اللاسلكية، والنقود اللازمة لمصاريف المراحل الأولى من المهمة.

حاول، وهو المسؤول عن العملية حسب الاتفاق، إنقاذ ما يمكن إنقاذه بالسرعة الممكنة. لكن، عبثاً. أدركهما الصباح بنوره والشمس بقسوتها، وعجّت المنطقة بأصوات الرعاة ومزاميرهم.

ودون جدوى، ظلَّ يبحث عن الرفاق والحمولة حتى الظهيرة.

وبينما هو جالس، ورفيقه شميدت، في ظل شجرة للراحة والاسترخاء بكامل لباسهما العسكري الألماني، عثرت عليهما دورية شرطة بريطانية. ولكن، ولحسن الطالع، كان في مقدمتها شرطي عربي مكتوب على كمه اسم عبد الله عمار. كان قريباً للعريف سمير عمار، أحد أفراد القوة الفلسطينية التي كانت تحت أمرته في حملة البادية العراقية.

ساعدهما عبد الله، حين علم بالمهمة، على الاختباء ذلك اليوم في حديقة إحدى المزارع، وأوصلهم، برفقة خادم، ليبيتا في أحد كهوف المنطقة.

كانت الخطة أن يتوجهوا لدى هبوطهم بحمولتهم إلى الجبال المؤدية إلى رام الله، لإقامة مقر مؤقت، على أن يتقدمهم أبو علي حسن سلامة، ليهيئ لهم محطات انتقالهم الواحدة تلو الأخرى، حتى الاستقرار النهائي في المقر الدائم المنيع في جبال نابلس وجنين، وإلى الشمال.

ولأنهم لم يلتقوا، وضاعوا عن بعضهم في منطقة تابعة، بحكم الملكية أو الجوار، إلى آل الحسيني، من أولاد محي الدين هلال الحسيني، ولأن المفتي كان قد أوصاه أن يتصل بعلي محي الدين الحسيني، إذا اضطره الأمر، تحرك ذو الكفل إلى منزل محي الدين في عقبة جبر، فوجد الابن الأوسط نافذ الذي أخبره أن أبو علي وفيلاند مرَّا من هنا، وتوجها إلى رأس العين لانتظاره.

وعندما طلب منه المساعدة في البحث عن الحمولة؛ قبل فوات الأوان، واكتشافها من الرعاة، قال إن دورته تنتهي في المزرعة هذه الليلة، وأن أخاه عليّاً، وهو ثقة المفتي، سيأتي غداً، وأن عليه أن ينتظره.

عاد إلى المغارة، في انتظار علي محي الدين، بعد أن أنفذ رسالة إلى أبو علي حسن سلامة، لكي يتقدمهم إلى جبال رام الله، لتهيئة المحطة التالية.

قال له علي بيك في اليوم التالي بجلافة وبرود ولؤم، بعد أن سمع منه القصة كاملة:

- كان خطأ كبيراً من العم سماحة المفتى الأكبر، التعاون مع الألمان في هذه المهمة.

وقعت الكلمات عليه وقع الصاعقة، فعلي كان ثقة المفتي، وليس الأمر من الصعوبة بمكان، فالحمولة في أراضيه، ولا يحتاج إلاَّ إلى أقل من ساعة من البحث لإنقاذ كل شيء.

وحين حاول ذو الكفل تذكيره بأن المهمة وطنية وليست شخصية، قال بعصبية:

- من قال لك إنني مجنون. لقد اتفقنا مع الإنكليز على إيقاف الهجرة اليهودية بعد انتهاء الحرب، وعلى منحنا الاستقلال، وقد سمحوا لنا بحضور مشاورات جامعة الدول العربية ممثلين بموسى العلمي.. نحن لسنا مستعدين للتعاون معكم.

حار ذو الكفل فيما سيقول، فذكَّره بإخلال الحلفاء بوعودهم في الحرب العالمية الأولى.

فقال علي بحزم:

- وعدونا بعدم الخلف وهم صادقون.

ثم أشاح بوجهه جانباً منهياً الحديث.

حاول ذو الكفل إقناعه بإعارته سيارة السماد، ساعة أو بعض ساعة، لجمع بضاعتهم، أو بعضها من دون أي مسؤولية عليه، وليدَّعِ بعدئذ، لو اكتشف الأمر أنه سرقها، لكنه رفض، وأصرَّ على أن يترك المنطقة ويلحق بحسن سلامة وفيلاند.

أسقط في يد ذو الكفل، ولم يملك إلا مغادرة المنطقة، ومعه فرانك، إلى رأس النبع، حيث وجدا فيلاند بانتظارهما، بعد أن تركه أبو علي متقدماً، حسب طلبه، إلى منطقة رام الله، لتهيئة المحطة التالية لهم. كانت أخبار رفيقهم الثالث راينغر لا تسر. أخبرهم الناس بأن الإنكليز قبضوا عليه وهو في حالة من الهستيريا والجنون.

كانت الخيبة الكبرى، كما قال للكيالي في كافتيريا غروبّين بمرارة وألم، تخلي آل الحسيني عنهم.

كانت حساباتهم مبنية على دعم آل الحسيني واحتضانهم، وإيجاد الملاذ الآمن لهم، بعيداً عن عيون الإنكليز واليهود، ريثما يؤسسون قاعدة العمليات، ويبدأون جمع السلاح والذخيرة، وتجنيد المجاهدين لبدء المقاومة. أما الآن، فقد انهار كل شيء! وما عليهم سوى النجاة بأنفسهم، وتلافي الوقوع بأيدي الإنكليز.

قضى، مع رفيقيه، أياماً عدة في إحدى المغاور، بانتظار رسالة من أبو علي لكي يتبعوه. وفي عصر اليوم الرابع، إذا بنافذ الحسيني يفاجئهم في مخبئهم في بطن الجبل، ويطلب محادثته على حدة.

قال له، وكانا واقفين على جانب الجبل:

- اكتشفت بضاعتكم، وافتضح أمركم، وأنصحكم بترك المنطقة.

وبينما كانا يتحدثان، لاحظ ذو الكفل مرور شخص في الوادي، أسفل الجبل، أخذ ينظر إليهما، فأدرك أن نافذ الحسيني أتى بعنصر التحري هذا؛ ليؤكد للسلطات حقيقة إقامتهم في هذا المكان.

بدأ شبح الفشل يلوح أمام ذو الكفل، لكن لا بأس من محاولة أخيرة لإنجاح ما يمكن إنجاحه.

قال له محاولاً مماطلته:

- لا أستطيع ترك المكان، قبل أن أتلقى من أبو علي، ما يشعرني بأنه **آمَّن** مقراً لنا.

بعد منتصف الليل، غادروا المكان متوجهين عبر الجبال الجرداء، إلى منطقة رام الله، مسترشدين ببوصلة، سالكين أرضاً وعرة، لا طرقاً مستعملة من قبل.

رشوا المسالك في طريقهم بمساحيق لتضليل الكلاب عن اقتفاء أثرهم، وساروا، حتى الثالثة بعد الظهر في أرض وعرة جداً، وتحت شمس حارقة، ثم التجأوا إلى جحر في بطن جبل وعر، غطّوه ببعض شجر العليق للتمويه. كانت الطائرات تحوم في سماء المنطقة، بحثاً عنهم.

وفي هذا المكان الذي يصعب على الصقر أن يكتشفهم فيه، سمعوا صوتاً ينادي من فوقهم: أبو محمود، وهو الاسم الذي اختاره ذو الكفل لنفسه حينذاك، وإذا هو ابن الناطور الذي أرسلوه إلى حسن سلامة، وقد عاد كما قال لهم من لدنه، ولمّا لم يجدهم في الصباح، جدّ في البحث عنهم حتى عثر عليهم في هذا المكان المعزول، ليخبره جواب أبو علي، وتعليمات معلمه علي محي الدين الحسيني.

كانت رسالة أبو علي حسن سلامة أن يتمهلوا بضعة أيام، حتى يطمئن للمكان الذي اختاره لإقامتهم، لكنهم وقد ساروا إليه فعلاً، فقد اقترح أحمد أن يرافقهم إليه، كما أوصاه معلمه، حسب قوله.

ولم يكن لهم خيار الرفض، أو القبول، فقد أصبح ابن الناطور معهم. فعاودوا المسير إلى أن أشرفوا على قرية مخماس، قبيل غروب الشمس، ولم يشاؤوا دخول القرية بشكلهم وحملهم وسلاحهم الخفيف، فاقترح عليهم ابن الناطور أحمد أن يبيتوا في مغارة بعينها، محاطة بجدار من الحجارة المتراصة، فلم يكن هناك بد من الموافقة، بعد أن أجهدهم التعب.

غادرهم أحمد إلى منزل أهله في مخماس، ووزعوا هم أدوار الحراسة فيما بينهم.

وفي هذه الأثناء، حضرت زوجة عم أحمد بإفطار مكون من الخبز والبيض والبصل، وأبلغتهم أن أحمد سيأتيهم بعد قليل.

بعد مدة وجيزة، وقد اتسع مدى الرؤية، نبهه فرانك إلى صف طويل من الأشباح، يسير بعيداً عنهم.

نهض محاولاً أن يجلب رشاشه من المغارة، فصاح به صوت من الخلف بالإنكليزية «Hands up »، ارفع يديك، وليفاجأ بفوهتي بندقيتين في رأسه، وكذلك في رأس فرانك.. عندها خرج فيلاند من المغارة ببزته العسكرية، رافعاً يديه، مدلياً باسمه ورتبته، واسم فرانك ورتبته، واسم ذو الكفل ورتبته.

وفي مقر إقامته في غوته شتراسة، سيتابع المفتي أخبار الإنزال الفاشل من الإذاعة البريطانية، وسيقرأ ترجمة للبيان الرسمي البريطاني حول العملية، في نشرة الصحافة المترجمة من مكتبه الصحفي.

سيقرأ أن «مظلياً واحداً أو أكثر، مجهولي الهوية، قد هبطوا في وادي الأردن خلال بضعة الأيام الماضية، ويطلب الآن من أفراد الجمهور أن يدلوا إلى أقرب مركز بوليس بأية معلومات، قد تؤدي إلى معرفة هؤلاء الهابطين، وأحد هؤلاء الهابطين ربما زاد طوله عن ستة أقدام، وهو يتكلم العربية والألمانية واللغات الاسكندنافية، وربما كان يتكلم الإنجليزية بلهجة أميركية».

وسيقرأ أيضاً ترجمة لتقرير إخباري في جريدة «صنداي إكسبريس»، نقلاً عن مراسلها في فلسطين، عن هبوطٍ بالمظلات في منطقة برية قرب أريحا.

وسيتابع، بحزن فطر قلبه، النص الذي يقول: «جاؤوا للقيام بأعمال تخريبية، لكنهم لم يحققوا شيئا من أغراضهم، فمنذ اللحظة الأولى التي هبطوا فيها، إلى أن قُبض عليهم بعد عشرة أيام من ذلك، كانوا هاربين مطاردين عبر التلال.. لقد أحضروا معهم أربع عشرة خريطة ألمانية مطبوعة لفلسطين، ولا أحد يعرف ما الذي كانوا يأملون في تخريبه. هبط الرجال الثلاثة، ويُعتقد أن واحداً منهم من عرب فلسطين، في السابع من تشرين الأول، وبعد ذلك، التقط خمسة من الصبيان البدو الرعاة، حقيبة فيها عملات ذهبية بقيمة أربعمائة جنيه إسترليني، كانت طائرة تحلق على ارتفاع منخفض، قد أسقطتها في وادي صغير. بعد ذلك، قام الرجال الثلاثة بالاستيلاء على الحقيبة وإنذار الصبيان بالانصراف».

ميلانو، 28 نيسان 1945

يصل محمد صالح الكيالي إلى فندق لوريتو ميلانو شبه منهار.

منذ أيام ثلاثة، لم يذق طعم النوم، قطع المسافة من برلين إلى سويسرا، ثم إلى ميلانو بنَفَسٍ واحد.

ينظر عامل الاستقبال إلى جوازه، يغيب للحظات قبل أن يُحضر الأوراق، ويبدأ بتسجيل البيانات.

يعطيه مفتاح الغرفة رقم 305.

يصعد إلى غرفته، وكأنه يسير في حلم. وما إن يفتح الباب، حتى يلقي بجسده على السرير، غاطاً في نوم عميق.

كان المفتي آخر شخص رآه، قبل أن يدخل الأراضي السويسرية.

بعد أن تحولت برلين إلى حطام، لا تكاد ترى فيها جداراً قائماً، ذهب إلى فيلا غوته شتراسه، فألفى المفتي يستعد للرحيل. كان ثمة ضباط ألمان عنده في ذلك الوقت، لم يعبأ به كثيراً، كان ساهماً في المجهول، لا يصدّق أن الهزيمة وقعت، وأن مصير فلسطين بات بيد أعدائها.

طلب المفتي منه، وكأنه تذكر شيئاً مهماً، أن يرافقه إلى مدينة بادغاشتاين النمساوية.

كانت سيارتهم هي آخر سيارة تغادر برلين، قبل احتلال الحلفاء لها.

لم يكن ثمة مكان آمن، كل ألمانيا باتت بيد الحلفاء.

في بادغاشتاين، اقترح مسؤولون ألمان إرسال المفتي ورفاقه في غواصة إلى أحد الشواطئ العربية. كاد المفتي أن يوافق لولا أنهم سمعوا من الإذاعة، أن الحكومة السويسرية، ووفقاً لتقاليدها، تقبل اللاجئين السياسيين في بلادها.

وجد المفتي في ذلك حلاً وفرجاً.

أقلعت طائرة ألمانية عسكرية بالمفتي، وبعض رفاقه، إلى مطار بيرن في سويسرا، بعد أن فضل آخرون تسليم أنفسهم لقوات الحلفاء. غير أن السلطات السويسرية رفضت قبول لجوء المفتي، بدعوى أنه على اللائحة المستثناة من هذا الحق، فطلب المفتي من الكيالي أن ينزل من الطائرة ويسلم نفسه، كونه غير معني بقرار المنع.

أسرع الكيالي بالنزول، وقبل أن يغلق باب الطائرة، ناداه المفتي وأعطاه حفنة من النقود الذهبية. لم يحاول أن يردّها، فهو بحاجة ماسّة إليها.

همَّ أن يقبِّل يد المفتي، وهو يغالب دموع عينيه، فسبقه المفتي وربت على كتفه.

لم يجد لا هو، ولا المفتي، ما يقولانه. غادر الطائرة مسرعاً. لم يكن أحد قد وصل إليها بعد.

لوح له المفتي بيده من خلف زجاج الطائرة المعتم.

مضى مبتعداً. كانت الدموع تغسل وجهه، وهو يسلم نفسه إلى نقطة الأمن السويسرية.

لفق للسويسريين قصة غير مقنعة، وفي الأساس، هم لم يكونوا مهتمين بأي قصة، مقنعة كانت أم ملفقة!

ادّعى بأنه مجرد طالب في مدرسة السينما في إيطاليا، وأنه كان في زيارة إلى ألمانيا لشراء كاميرا، والتقى بالمفتي مصادفة في برلين، بعد أن تقطعت به السبل. فوضعه السويسريون، بعد أن تأكدوا من أوراقه، في مهجع ضم مئات الفارين الآخرين من ألمانيا. سألوه، بعد ساعات عن وجهته، فأجاب دون تفكير إلى إيطاليا، فأركبوه القطار مع فارّين آخرين، وأغلقوا عليه الفركونة، ووضعوا شرطياً لحراستها، وأرسلوه إلى ميلانو..

كانت معه حقيبة واحدة فقط، وضع فيها أعز ما حمله معه من سنوات غربته الخمس. بعض الصور والأوراق خط فيها مشاريع أفلام للمستقبل، والدبلوم من مركز السينما التجريبية، والكاميرا الأعجوبة آرريفليكس.

كانت كاميرا آرريفليكس الحدث السعيد والوحيد خلال العام الأخير الذي قضاه في ألمانيا. أراد ابتياعها من معرض لايبزغ التجاري، قبل اشتداد الحرب، لكنها كانت للعرض فقط.

سافر إلى ميونيخ، إلى مقر شركة «آرري»، فوجده مغلقاً بسبب المخاوف من القصف.

بحث عن مقر الشركة الجديد، فألفاه في أحد الحصون القديمة، على ضفاف بحيرة برانينبيرغ، قرب الحدود النمساوية. ومن هناك، اقتنى هذه القطعة الفريدة. كان ثمنها باهظاً قبل الحرب. أما الآن، فقد اشتراها بأقل من ربع ثمنها.

تخيل كم ستوفر عليه هذه الكاميرا من الوقت والجهد، في التقاط المشاهد التي بدأ يتخيلها لفيلمه القادم: «فلسطين.. أرض السلام».

سوف لن يضطر لتثبيتها على منصب ثلاثي القوائم، سيحملها بيده، فهي صغيرة وخفيفة، وبطاريتها أشبه بالمعجزة، يمكن حملها بقبضة اليد، أو على الكتف.

علبه الفيلم خارج جسم الكاميرا، أسهل وأجمل شيء يمكن تخيله، والعدسة بحد ذاتها قصة أخرى، لم تنتج مصانع الكاميرات ما هو أدق منها. أما تقنية المرآة العاكسة، فهي أشبه بالمعجزة. ستمكنه من رؤية اللقطة تماماً، كما هي في الصورة الملتقطة. كم ستقلل هذه الكاميرا عليه من أخطاء التصوير المعتادة في الكاميرات السينمائية المتداولة. كان التصوير السينمائي قبل هذه الكاميرا أشبه بلعبة الحظ، قد تصيب، وغالباً ما تخيب.

الألمان مولعون بالابتكارات الحديثة المفاجئة، شاهد في معرض لايبزغ كاميرات كثيرة ذات عدسات ثلاثية. لم يرَ هذه التقنية في إيطاليا، ولا حتى في فرنسا. فاجأته الأفلام التسجيلية الملونة. شاهد الكثير منها في أستوديوهات «UFA»، ومنها فيلم زيارة المفتي إلى مقاطعة سيليزيا. كان الفيلم متقن اللقطات والمونتاج بشكل لافت. لكنه لا يقارن مع «المعجزة» السينمائية التي استحوذت على تفكيره لعدة أسابيع، وشاهدها مرات عدة، فيلم «انتصار الإرادة».

أثار استغرابه تصوير الفيلم بالأسود والأبيض. هناك أفلام أقل منه أهمية صورت بالألوان. ربما يرتبط الأمر بخيار فني، يتعلق بالمخرجة ليني ريفنشتال.

لا تزال لقطات الفيلم حاضرة في ذهنه، رغم مضي وقت على آخر مشاهدة. لقطات الغيوم والطائرة. الموسيقى المعبرة، واللقطات الخلفية لهتلر، وهو راكب سيارته يحيي الجمهور المصطف على جانبي الطريق في

مدينة نورمبرغ، لحضور المؤتمر النازي. لقطات الأطفال ووجوههم وابتساماتهم، والأم التي تحمل الطفل، وتستوقف هتلر في الطريق. إعداد الطعام، وقدور الحساء والمقانق التي يحملها الجندي. زوايا وكثافة اللقطات العامة للجماهير المصطفة على جانبي الطريق، وعلى الشرفات، وفي الساحات. الجنود في معسكراتهم.

خطاب هتلر في المؤتمر، والزوايا المتعددة، والقطعات الكثيرة على القيادات والجمهور. أداء هتلر فائق التأثير. والمونتاج الذي يفوق في روعته أي فيلم آخر. لا بد أن تكون الكاميرات المستخدمة قد زادت على العشر أو حتى أكثر من ذلك. ربما لهذا السبب لم يصور بكاميرات الألوان.

أذهله مجرد التفكير بأنه أحبَّ هتلر بعد مشاهدة الفيلم، كشخصية سينمائية. كان يؤدي دوراً متقناً بكل جوارحه. لم ير هتلر رؤية العيان، كما رأى موسوليني.

صورة هتلر الماثلة في ذهنه هي تلك الصورة السينمائية التي صنعتها أفلام «انتصار الإرادة» و«انتصار الإيمان» و«الألمبياد». كانت شخصية هتلر السينمائية قوية معبرة صادقة في كل هذه الأفلام، بكل نأمة وكل نظرة وكل نَفَس. كان هتلر السينمائي بطلاً يدعوك لأن تحبه من أعماق قلبك. متفانياً مخلصاً لأفكاره ولشعبه، متيماً بحب هذا الشعب، يلقي كلماته؛ كأنّه كاهن في معبد يؤدي صلواته من أعماق روحه. حوَّل اللغة الألمانية إلى طقس متكامل، لا مثيل له في براعة الإلقاء. يتضاءل أمامه موسوليني، ويقصر حتى إنّه يعجز عن بلوغ ركبته.

موسوليني السينمائي، فاشل ومبتذل، أقرب إلى المهرج منه إلى الشخص القوي الجدي الذي كان يسعى أن يؤدي دوره. أما موسوليني الحقيقي،

بعيداً عن الكاميرا، فكان قلقاً وحزيناً، وبائساً.. ربما كان إقباله على الحياة والملذات هروباً من شعوره بالعدم واليأس والضياع.

موسوليني السينمائي، وحتى الواقعي، لا ينتحر.

موسوليني السينمائي يفرّ من المعركة، يبحث عن مخبأ بعيد عن الأعين. مكان لا يخطر على بال أحد. حفرة في الأرض أو كهف للرعاة أو مستودع للأغراض المهملة، يمضي فيه بقية حياته، منتظراً تغير معادلة الصراع. أما موسوليني الواقعي؛ فهو أجبن من أن يضع حداً لهزيمته الشخصية. سيحاول أن يهرب ليكمل بقية حياته مع امرأة من نسائه الكثر. النساء ملاذه الوحيد، كلما زاد عدد النساء في حياته، شعر بأهميته الشخصية.. النساء ملاذه الأخير.. ملجأه الآمن في عالم الأكاذيب الذي بناه حول نفسه.

هتلر السينمائي ينتحر في نهاية المطاف، ستبدو أسطورته مجرد كذبة كبرى، إن حاول الهرب والنجاة بنفسه. الانتحار خيار إجباري لهتلر السينمائي.. مصير حتمي لا مهرب منه.

لم يعجبه مطلقاً فيلم تشارلي شابلن، «الديكتاتور العظيم»، أراد آن يسخر من فيلم «انتصار الإرادة»، فأضحى هو نفسه مثار السخرية.. وقع في التهريج الرخيص.. ربما هو أفشل أفلام شابلن، وأقلها إقناعاً.. أين هو من فيلم «انتصار الإرادة»؟!

لا شك في أن كاميرا الآرريفليكس هي التي أعطت للفيلم هذه القوة.. كم هو محظوظ.. حصل على كاميرا قبل دمار المصنع، وربما إغلاقه لفترة طويلة!

بعد سنوات، سيعلم أن الأميركيين، وكما فعلوا مع شركات وتقنيات كثيرة ومخترعين ألمان، نقلوا كاميرات الآرريفلكس وتقنياتها إلى بلادهم بعد الحرب، وأعادوا إنتاجها باسم سينيفليكس.

أصبحت الآرريفليكس الكاميرا المعتمدة لدى الجيوش الأميركية وسلاح الجو، قبل أن تدخل نهائياً إلى هوليوود مع فيلم «الممر المظلم» في العام 1947.

انحصرت تداعياته، طوال رحلته، بالكاميرا والأفلام وهتلر وموسوليني، فلم يعبأ بالطريق الخلاب، العابر سفوح جبال الجورا قرب بحيرات نيوشاتيل ولوزان، مخترقاً جبال الألب الشاهقة المكسوة بالثلوج، من جانبها السويسري إلى جانبها الإيطالي، ولم تلفت نظره الجبال الرخامية المقصوصة بدقة متناهية كقطع الجبن الأبيض، ولا الشلالات المدوخة شاهقة الارتفاع والتي تكاد تلامس زجاج القطار، ولا بحيرة كومو الساحرة.

لم يعبأ بشيء. فقدت الحياة طعمها.

سيعلم لاحقاً، أنه في اللحظة التي كان قطاره يمر قرب بحيرة كومو، كان أحدهم يطلق النار على موسوليني في مكان ما، قريب من البحيرة.

كان الدوتشي المهزوم قد وصل إلى مدينة كومو، قبل أيام ثلاثة بسيارة عادية، متخفياً ومعه عشيقته الأخيرة كلارا بيتاتشي، ليخوض ما أرادها أن تكون، معركة الشرف الكبرى والأخيرة، إثر رفض أسقف ميلانو التوسط بينه وبين قوات الأنصار، للاتفاق على شروط التسليم مقابل إنقاذ حياته ـ

في مدينة كومو تبين له أنه كان واهماً، وأن أنصاره المخلصين لا يزيدون على مائة شخص، أو أكثر بقليل، لكنهم سرعان ما انفضوا من حوله، عندما اعتراه مسٌّ من الجنون، وبدأ يهذي بكلام غير مفهوم بالنسبة لهم.

وفي الخامس والعشرين من نيسان، كتب رسالته الأخيرة إلى زوجته راتشيلا، يطلب منها الفرار إلى سويسرا. وفي السادس والعشرين منه، تعاظمت مخاوفه، وسيطرت عليه حالة من الهلع الشديد، ففرَّ إلى ميناجيو، مدينة عشيقته ما قبل الأخيرة أنجيلا. حاول الهروب من هناك مع كلارا، مختبئاً في مؤخرة شاحنة نقل، متوجها إلى الحدود السويسرية، للمغادرة من هناك على متن طائرة إلى إسبانيا بجواز سفر إسباني تدبره شقيق كلارا ، لكن السائق، وبعد أن مشى بهم مسافة قريبة، وبلغ قرية دونغو، أوقف السيارة وأمرهم بالنزول، وأشهر بندقيته وأخبرهم بأنه معتقلهم باسم الشعب الإيطالي. كان السائق واحداً من أعضاء قوات الأنصار التي يهيمن عليها الحزب الشيوعي.

في اليوم التالي، أصدر مجلس جبهة التحرير الشعبية، المدعومة من قوات الحلفاء، أمراً بإعدام موسوليني. وأرسلوا له في مكان اعتقاله ضابطاً من أتباعه المخلصين، يدعى العقيد فاليريو الذي انضم سراً للجبهة، وأخبره بأنه جاء لينقذه، وطلب منه، وممن تبقى من أعوانه المخلصين، تسليم أسلحتهم له ومرافقته، فذهب بهم إلى فيلا بيلموت المجاورة.

كان في انتظارهم جماعة من الجنود، وهناك، أمرهم بالنزول إلى ساحة أعدت للإعدام، فتشبثت كلارا بالدوتشي، ورفضت الابتعاد عنه، فأطلقوا النار عليها وأردوها، ففتح موسوليني صدره، وصاح بهم: أطلقوا النار هنا.. وعندها انهمر الرصاص عليه، وعلى كلارا المتأبطة ذراعه ، وعلى

معاونيه الخمسة عشر، ومع ذلك، بقي حياً يتنفس، فأطلقوا مزيداً من الطلقات، حتى انقطعت أنفاسه.

كانت قد ارتسمت على وجهه نظرة أرعبت جميع المشاركين في الإعدام، وعلى رأسهم العقيد فاليريو، فقال لهم: إن قسمات وجهه لا تتناسب مع الحدث. فحطّموا الوجه، وحاولوا محو ملامحه ما استطاعوا للخلاص من تلك النظرة المرعبة. عثر أحدهم على قضيب معدني غليظ وثقيل، فهوى على الوجه حتى اختفت الملامح تماماً، وبقيت الندبة الكبيرة المفتوحة في الجانب الأيمن من الوجه.

ميلانو، 29 نيسان 1945

يستيقظ الكيالي فجأة على ضجيج هائل من الأصوات. ينظر إلى ساعته. الوقت مبكر جداً على أي ضجيج.. ما الذي يجري؟

يغالب جسده المتعب. ينهض وينظر من نافذة غرفته إلى الساحة أمام الفندق. ما هذه الجموع الهائلة المندفعة، باتجاه شيء ما، عند محطة الوقود؟

- هل هي جثث آدمية هذه اللفافات الملقاة على قارعة الطريق؟

يسأل نفسه.

يمعن النظر أكثر، فلا يرى شيئاً. آلاف يملأون ساحة لوريتو.

يخرج الكاميرا بتلقائية ومن دون تفكير. ثمة فيلم فارغ أعطوه إياه مع الكاميرا وخبأه للطوارئ. يُدخل الفيلم في العلبة، ثم يثبتها أعلى الكاميرا، يا للسهولة..

ينزل من غرفته، ويندفع إلى الساحة، يخترق الجموع، ويصل إلى الجثث، لا يصدّق عينيه، إنه الدوتشي موسوليني، مشوه الوجه محطم الجمجمة، لكنه يعرفه جيداً، من لباسه وهيئته وبقايا ملامحه.. ثمة رجال آخرون وامرأة تثقب الطلقات أجسادهم جميعاً.

ينتبه إلى وجود كاميرا سينمائية أخرى تدور في المكان. فينطلق بلقطات تفصيلية، مبتدئاً من الجثث الملقاة على الأرض.

يبدأ بعض الرجال الهائجين المسلحين بالبنادق، ربط قدمي الدوتشي، ورفع جثته مقلوبة على مظلة حديدية، تعلو محطة الوقود القديمة على طرف الساحة، وما هي إلا لحظات، وسبع جثث معلقة إلى جانب بعضها، منكسة الرؤوس إلى الأسفل.

يوقف الكاميرا، يسأل أحد الشبان المشاركين في عملية الرفع، وقد بدت عليه علامات السعادة والتلذذ بالمشهد:

- لماذا ترفعونهم مقلوبين هكذا؟

ينظر إليه الشاب، المعتمر قبعة عليها شعار المنجل والمطرقة، وهو يبتسم:

- هكذا كان الرومان يعلقون الخونة في ساحات المدن. ألم يكن يريد إعادة تقاليد الرومان، ها نحن نلبي له رغبته!

يتبادل مع الشاب نظرة طويلة، كان الكيالي فيها مذهولاً والشاب باسماً، قبل أن يودعه بغمزة من عينه، ليلتحق بمجموعته المسلحة بالبنادق، المنتشية بانتصارها، والماضية في أناشيدها الحماسية.

يأخذ لقطة بانورامية للجماهير المأخوذة بحالة من الهياج، بعضهم يرقص، وآخرون يغنون ويهتفون ضد الدوتشي والفاشية والحرب.. يوقف التصوير.

يلمح من بعيد شابة تضرب جثة الدوتشي، وهي تبكي وتصرخ، «أيها الكاذب.. أيها الكاذب».

يعود حزيناً إلى غرفته، يتأمل المنظر من الأعلى، تعود إلى ذاكرته مشاهد الحشود في ساحات المدن الإيطالية، عندما كان الدوتشي يهيِّجهم بخطاباته النارية.. يعيد تشغيل الكاميرا، ويأخذ لقطة عامة.

يوقف الكاميرا من جديد، يشعر بالغيظ والحزن والغضب.

تتمايل الجثث برفق، حين تلمسها يد أحدهم، كأنها خراف مذبوحة ومعلقة في دكان قصاب.. أين ذهبت التفاتات الدوتشي الخاطفة، وتمايلاته، وصوته الذي كان يملأ الساحات.. هل هذه الجماهير هي نفسها التي كانت، قبل شهور، تهتف له في ساحات إيطاليا وشوارعها، عندما كان يلقي خطبه الحماسية؟ هل هي نفسها الجماهير التي كانت تحيط بسيارته، وتكاد تحملها على الراحات؟ هل هي نفسها، التي كانت صيحاتها وتصفيقها الحاد يجبرانه على الصمت، حتى تهدأ من فرط حماستها؟!

سيبقى هذا المشهد مسيطراً عليه فترة طويلة، سيستعيد كل تفصيل فيه.. ملامح الجثث قبل تعليقها، نشوة الانتصار على وجوه الشباب الهائج، نظرات الذهول من فضوليين، اعتلوا أعمدة الإنارة الطرقية وحواف النوافذ في الأبنية المجاورة.

سيتذكّر بقوة ذلك الشاب، ذا الشعر الأجعد المقصوص، والشارب الخفيف، واقفاً بين الجثث، متزنراً بنطاق جلدي، وعلى صدره نياشين وأوسمة، وفي إحدى يديه بندقية، وفي الأخرى مسدسٌ. سيتذكر نظرته الفخورة إلى المحتشدين.. وسيتساءل: هل يمكن للقتل أن يكون مدعاة للفخر، مهما كانت الذرائع والمبررات؟ أين حرمة الجسد الآدمي؟ أين الكرامة الإنسانية من دعاة الإنسانية هؤلاء؟

سيسأل نفسه، كيف يمكن للمظلوم الذي قاسى من الظلم وكرهه أن يصبح ظالماً؟ وكيف للمضطهَد، الذي عانى ويلات الاضطهاد، أن يصبح مضطهِداً؟!

سيمضي أيامه الإيطالية الأخيرة في مدينة فينيسيا، بانتظار سفينة تنقله إلى يافا، سيقرأ كل ما كتبته الصحف عن الدوتشي موسوليني، وعن الملابسات

الغريبة لإعدامه. سيقرأ أن حياته كانت سلسلة طويلة من الأخطاء والخطايا.. لا يمكن تبريرها.. انقلب على حزبه وفكره الاشتراكيين، ونكَّل برفاقه القدماء، وبالشيوعيين.. وكسر إضرابات العمال. كان أول من اخترع فكرة القمصان السوداء للفرق الضاربة، المختصة بالعنف السياسي. حارب المافيا، ليس للقضاء عليها، بل لضمها إلى مجموعاته الفاشية.. ألغى كل الأحزاب.. تدخَّل في الفنون والآداب، وبهدف معلن، هو توحيد الثقافة الإيطالية في قالب يتطابق مع فكره.. غذَّى النزعات العنصرية عن تفوق الأمة الإيطالية، وعارض مبدأ المساواة بين البشر. كان مؤمناً بفلسفة نيتشة التراتبية التي تنفي المساواة، متمثلاً أفكاره عن احترام القوة والاعتزاز بالقسوة.. ملأ الساحات والشوارع بتماثيله، وبجداريات كبيرة تخلد أفعاله.. أجبر الناس على وضع صوره في غرف النوم، وأن توقد العائلات الشموع بعيد ميلاده. أصدر قوائم سوداء بالمثقفين المحظورين، وبأسماء كتب ينبغي حرقها ومنعها من التداول.. فعل وفعل وفعل..

لكن، هل يبرر ذلك كله للقتيل أن يتقمص روح القاتل! وما فائدة التغيير إذن، إن كان الثائر على صورة من ثار ضده؟!

ألم يكن موسوليني يريد لإيطاليا أن تكون دولة عظمى، تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط كله؟ ألم يجعل إيطاليا رقماً صعباً في معادلة القوة الدولية؟ ألم يجعل الحلفاء يرضخون، ويقبلون بمجالها الحيوي في إفريقيا وغيرها؟ ألم يُحيِ الأمل في الأمة الإيطالية، بعد أن عانت من الهوان والعيش على هامش أوروبا الصاعدة منذ عصر النهضة.

ألا توجد حسنات للرجل، مهما كانت ضئيلة في نظر الثائرين عليه، تشفع له، وتجنبه هذا المصير البشع؟!

لن يستطيع طوال رحلته، خمسة أيام بلياليها، أن يجيب على أسئلةٍ تكاثفت في رأسه، فلون الدم كان أقوى من أي شيء آخر.

لون الدم لطخة سوداء تمحو أي لون آخر، حتى في الصور واللقطات المأخوذة بالأسود والأبيض!

وهو على ظهر السفينة، سوف يتلف الفيلم. سيعرِّضه للضوء ويلقي به في لجة البحر، لا يريد أن يحتفظ بهذه البشاعة. الجثث ليست للعرض أو التصوير.. الجثث للدفن فقط.. إكرام الميت دفنه.

يلوم نفسه على تصوير الجثث.. كيف خطر بباله مثل هذا الأمر؟ كيف سمح لنفسه أن يفعل ذلك؟ كيف ارتضى أن يغلّب الفضول المهني على الحس الإنساني؟!

سينظر مليّاً إلى كاميرا الآرّيفليكس، وسيعاهدها على أن لا يلوثها بلقطة دم واحدة.

يافا، 13 حزيران 1945

يفتح إبراهيم سرحان باب الشقة التي أطلق عليها اسم أستديو فلسطين.

لم يكن فيها شيء يدل على أنها أستديو سينمائيٌّ؛ سوى هذا الاسم الذي خطه له خميس شبلاق بلون أحمر، على لوحة خشبية مؤطرة ومطلية بالأبيض.

موقع الشقة، الأستديو، مقابل المستشفى الفرنسي، أعطاه دفعة معنوية كبرى، فهذا هو قلب يافا الحديثة، والمطل على المدينة القديمة.

اشترى الشقة بالنقود التي حصل عليها من أحمد حلمي باشا، رجل المال المعروف، والشخصية الوطنية شديدة الاحترام. صوَّره في فيلم في أثناء زيارته يافا ليفتتح فرعاً لبنك الأمة العربية، فنقده بثلاثمائة جنيه.

قبل أيام، احتفل بتأسيس هذا «الأستديو» مع خميس وجمال، شريكيه في المشاريع الفنية المتعثرة. كان قد دعا إلى هذا الحفل كل هواة الفن ومحترفيه في يافا، بمن فيهم فناني المرابع الليلية وفناناتها.

يفاجأ قبل دخوله بالعدد الهائل من الرسائل في العلبة البريدية. صممها كبيرة نسبياً عند صديقه النجار، المعتاد على طلباته غير المألوفة.

نشر إعلاناً عن بدء التحضير لفيلم «عاصفة في بيت»، وأن الباب مفتوح للهواة، لكي يشاركوا في الفيلم، وما عليهم سوى إرسال سيرتهم الذاتية،

وصورة شخصية في رسالة إلى عنوان المكتب، مع رسم رمزي للاشتراك، مقداره جنيه فلسطيني واحد.

يذهب إلى المطبخ ليعد إبريق شاي، قبل أن يبدأ بفض الرسائل، فصحن الفول الذي التهمه، قبل قليل، مع رغيف ساخن من الخبز المرقوق في مطعم الكلحة، كان بحاجة إلى إبريق شاي مخمَّر ليعدِّل مزاجه.

يبدأ إبراهيم بارتشاف الشاي بشراهة، وفتح الرسائل وجمع النقود بسعادة وذهول، ألفان وسبع جنيهات، إنه مبلغ كبير يكفي لتمويل الفيلم، لم يكن يظن أنه سيجنيه من إعلان صغير كهذا، لم يكلفه أكثر من خمسة جنيهات.

أقر في دخيلته بأنه مارس النصب والاحتيال، لكنه غفر لنفسه، لأنه لم يكن لديه سبيل آخر.. ثم ما تأثير الجنيه على حياة الناس.. لا شيء يذكر.. لن يتسبب في جوع أحد!

بقيت مشكلة وحيدة لكنها أساسية.. قصة الفيلم لم تكتمل، على الرغم من مضي وقت طويل على التفكير بها، ومناقشتها طويلاً مع خميس وجمال.. سهروا ليالِيَ طويلة، وشربوا كميات كبيرة من الشاي والقهوة في أغلب مقاهي يافا، ولم يجدوا لها نهاية مناسبة.

تتحدث القصة عن أسرة مكونة من زوج وزوجة، ولهم طفل واحد.

كانوا سعداء في حياتهم البسيطة وببستانهم الصغير.

وفي يوم من الأيام، يأتي عجوز غريب الأطوار، ويطلب منهم أن يبيعوه البيت والبستان، وعندما يرفضان، يصارحهما العجوز الغريب بأن البيت كان لجدّه، وبأن فيه كنزاً مرصوداً، لا يستطيع أحد فتحه إلا هو شخصياً.

لا يأخذان الموضوع على محمل من الجد، ويعتبران العجوز خرفاً لا يدرك ما يقول. لكن، وبعد يومين، يأتي العجوز، وبصحبته رجال شرطة، يعرضون لهم وثائق الملكية القديمة، ويعطونه نصف البستان.

لا تمضي فترة وجيرة، إلا ويكون العجوز قد بنى غرفة في الجزء الذي استولى عليه من البستان، لتبدأ بعد ذلك حرب الأعصاب بينهم وبينه.

أصبح العجوز الغريب يأتي بحركات بهلوانية تدخل الرعب إلى قلوبهم، يصعد مرّة إلى النخلة جريا على أقدامه، وهم ينظرون إليه برعب. ومرة، يخرج لهم هيكلاً عظمياً يرقص ويغني.

وهذا الجانب من الفيلم أصر عليه إبراهيم، لأنه، حسب اعتقاده، سيبهر الناس، وسيظهر مواهبه في الخدع السينمائية!

وفي يوم من الأيام تختفي الأم، وتفتح الشرطة تحقيقاً باختفائها، الذي يبقى لغزاً لا تستطع الشرطة إيجاد حل له. وبعد ذلك، يختفي الطفل، لتصل رسالة إلى الأب بأن الخاطفين مستعدون للإفراج عن الأم والابن، مقابل تركه البيت لهم.

يستنجد الرجل بأهله وعشيرته، وبعد مفاوضات وأخذ ورد، ينصحونه بأن يتخلى عن نصف البيت ونصف البستان، من أجل حياة زوجته وابنه. وقبل أن يوافق، يجد البيت مقسوماً إلى نصفين، حتى غرفة نومه كانت مقسومة إلى نصفين.

تلك كانت قصة الفيلم غير المنتهية.

يصل خميس وجمال.. وعند جلوسهما يفاجئهما بالخبر السعيد:

- اكتمل تمويل الفيلم، ولا بد من مباشرة التصوير!

يستغربان الأمر، ويذكرانه بأن القصة لم تنته!

- سنسميه: «عاصفة في بيت.. حكاية بلا نهاية».

لا تروق الفكرة لجمال أصفر، فينصرف يائساً، يتبعه خميس شبلاق إلى مقهى حميد في العجمي، علّهما يعثران، وهما يدخنان النارجيلة ويحتسيان الشاي الخمير، على نهاية لهذه القصة المعقدة إلى درجة مملة، والسخيفة إلى أبعد الحدود.

يمضي إبراهيم سرحان إلى غرفة الموفيولا، ليرى المشاهد التي صوّرها، قبل أيام، في حفل افتتاح الأستديو.

كانت المشاهد تمثل غرف الأستديو والمعدات، وحفلاً غنّى فيه المطرب سيد هارون، ورقصت فيه الراقصتان شمس وقمر.

يبدأ بتحريك اللقطات التي سيختار منها المشاهد المناسبة للعرض، فيسمع قرعاً شديداً على الباب.

ينهض بتثاقل ليفتح، فقد اعتاد على الهواة المتحمسين...

يفاجأ برجال الشرطة يسألون عنه.

ينظر إليهم، وقد عقدت الدهشة لسانه، فيمضي معهم مستسلماً لقدره، من دون أن ينبس ببنت شفة.

تسيطر عليه طوال الطريق إلى قسم الشرطة فكرة النصب والاحتيال، يتساءل عن الطريقة التي اكتشفت الشرطة فيها جمعه للمبلغ بطريقة غير قانونية.. كيف عرفوا بالأمر؟ وما هذه السرعة العجيبة؟ هل وشى به أحدهم؟ لا أحد يعرف سوى خميس وجمال.. هل خاناه وأبلغا عنه؟ ! ولماذا يفعلان ذلك؟ ماذا سيستفيدان؟ سيقول للمحقق إن النقود على حالها في المكتب، ولم ينفق منها أي جنيه، وهو مستعد لإعادتها إلى أصحابها، فرداً فرداً، شرط أن يخلوا سبيله!

في قسم شرطة يافا، سوف يعرف سبب اعتقاله.. لم يكن للنصب والاحتيال أي علاقة بالأمر. ارتاح لأن شكوكه بصديقيه لم تكن حقيقية. أما تهمته الحقيقية، والتي لم يفهمها ولم يقدِّر عواقبها، فهي تنفيذه مشهداً سينمائياً، عرض قبل الأفلام المصرية في سينما فاروق الصيفي، يمثل الحاج أمين، وهو يخطب في مسجد يافا الكبير في أثناء زيارة الأمير سعود بن عبد العزيز، قبل عشر سنوات، وإلى جانبه يرفرف علم فلسطين.

سوف ينقل مخفوراً إلى القدس، حيث يقرر القاضي إيداعه السجن، لمخالفته المادة 11 من نظام الطوارئ لسنة 1936، والتي تحظر «طبع وإخراج وعرض وبيع الصور الفوتوغرافية واللوحات والأشرطة السينمائية، أو غير ذلك من المصورات التي تحتوي على مناظر العنف وضحاياها، أو تشير إلى شخص، أو أشخاص، يحملون السلاح، أو يعزى إليهم حمله ضد الحكومة، أو تشير إلى عمليات الجند».

كان الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر، كما سيقول له القاضي، أحد الذين يُعزى إليهم حمل السلاح ضد الحكومة.

لم يكن يتوقع أن يقوده هذا المشهد إلى السجن، كان يحاول أن يقلّد المشهد الذي رآه في سينما أمبير، وظهرت فيه ملكة بريطانيا مع علم الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، قبيل عرض فيلم طرزان ملك الأدغال. وعندما سأل عن ذلك المشهد، قيل له إنه جريدة سينمائية تفرضها الحكومات على دور السينما قبل الأفلام، وتتضمن أخباراً رسمية وسياسية.

أعجبته الفكرة، وأنجزها من فوره، وقدمها لصديقه سعيد أبو قاعود، عارض الأفلام في سينما فاروق، باعتبارها هدية ثمينة، يريد منها أن يرد له جمائل ومواقف كريمة كثيرة، على مدى السنوات الماضية، عندما عمل

عارضاً في السينما سنوات طويلة، وبعد أن ترك ذلك العمل الممل، ليتفرغ للتصوير الفوتوغرافي، ويبدأ برحلته السينمائية المتعثرة.

في السجن، سيلتقي محمد صالح الكيالي حزيناً كئيباً صامتاً. وسوف يخبره الكيالي، في أحاديث قليلة تبادلاها، في أثناء التريّض، كيف اعتقلوه في ميناء يافا، فور رؤيتهم للتأشيرات الإيطالية والألمانية على جواز سفره، على الرغم من عدم امتلاكهم أي دليل ضده، وكيف جلبوه مقيداً بالحديد والسلاسل على متن إحدى القاطرات، إلى هذا السجن اللعين، وكأنه مجرم خطير.

القاهرة، 20 أيلول 1945

يقتاد جنديان بريطانيان محمد صالح الكيالي وزميلاً آخر له، ذا ملامح إفريقية عبر ردهة طويلة، تصطف على جانبيها أبواب معدنية.

أثر الأحذية على الأرضية الإسمنتية يحدث صوتاً رتيباً، يزيده الصدى قوة وتأثيراً.

قبل قليل، انتهت معاملات الاستلام والتسليم، وأصبحا الآن في عهدة مركز المخابرات البريطانية لعموم منطقة الشرق الأوسط في حي المعادي.

في الخامسة صباحاً، أيقظوه وأخبروه بأنه سيغادر سجن مدينة القدس. وبعد نصف ساعة، أصعدوه هو ومحمد البرناوي، سائق المفتي الخاص، سيارة عسكرية «بوكس»، فيها جنديان مسلحان بمسدسين، تقف وراءها سيارة جيب، فيها ضابطان برتبة نقيب.

اقترب منهما ملازم أول، هو الذي استجوبهما، وهو يحمل بيده قيداً، هل تقسمان بشرفكما أن لا تحاولا الهرب، أو أن أضع أيديكما في هذا، فوعداه بعدم محاولة الهرب.

استقر المستجوب معهما في السيارة البوكس التي انطلقت ووراءها سيارة الجيب بضابطيها، مخترقتين شوارع القدس بسرعة كبيرة، متجهتين صوب الخليل، ولم يعرفا وجهتهما، إلا عندما توقفتا في أحد المعسكرات للتزود

بالبنزين، حيث استنتج الكيالي أنهما في أقصى جنوبي فلسطين، من لهجة الناس وهيئة البدو. وتأكد ذلك، عندما اجتازا بعض الحواجز، وشاهدا العلم المصري والموظفين المصريين. ثم عاودت سيارتاهما السير، محاذيتين رتلاً غير متناه من سيارات النقل المكتظة بالجنود، تقودها فتيات إنكليزيات.

كانت سرعة السيارة تتفاوت بين حين وآخر، إلى أن وصلوا إلى شوارع مدينة كبيرة نظيفة جميلة، ذات حدائق منسقة، فعلموا أنها الإسماعيلية، وبعد مسير ساعتين أي في الخامسة مساءً، وصلوا إلى معسكر بدا لهما مقطوعاً عن العالم، لهدوئه وبعده عن المعمورة، في وسط غابة تنعق فيها الغربان.

يفتح الجندي باب الزنزانة رقم 9، ويدفع الكيالي بقوة توصله إلى الجدار المقابل للباب.

يدور على عقبيه، ليرى ما يحدث، فيقفل الباب بسرعة.

يسود الصمت المكان، شيء ما يدوّي في رأسه، دويّاً هادئاً عميقاً بعيداً جداً، لعله ترجيع دويّ السيارة التي أقلته نحو اثنتي عشرة ساعة متواصلة، من القدس إلى القاهرة.

يتلفت حوله مستكشفاً المكان.

هي غرفة مربعة، خالية إلا من سرير عسكري حديدي، مجرد من الفرش، وفوقه رف خشبي.

تقابل الباب بكوته الصغيرة، نافذة بقضبان حديدية، تطل على الغابة بمدى لا يتجاوز الأمتار الخمسة، إذ يرتفع بعد ذلك ستار من الحصير والخيش، وتشغل المسافة بين الشباك والستار لفائف من الأسلاك الشائكة، تتسلق الستار، وتنحدر إلى ما وراءه.

الصمت القاتل يهيمن على المكان لولا خطوات الحرس العسكري الرتيبة في الممر الطويل.

يدخل عريف ونائب عريف إلى الزنزانة. يجردانه من ملابسه ويفتشان في كل مكان.

يأخذان الملابس النظيفة، ويلقيان عليه بدلاً منها ملابس قذرة.

ينظر إلى الملابس بقرف، كيف سيرتدي هذه الأشياء.

- لماذا تأخذون مني ملابسي النظيفة.

يرد عليه العريف بفظاظة:

- بعد دقيقة، ستكون قد أبدلت ملابسك. ما كنت تلبسه ليس من أملاك هذا المكان؛ بل هو لسجن القدس العسكري، وستعيدها إليه حالاً.

- ألا تنظفوها على الأقل؟

- عليك أن تنظفها بنفسك.

- متى سيحضرون الفراش؟

- أي فراش؟

- الذي سأنام عليه.

ينظر العريف حواليه، ويشير إلى بطانيتين، ألقى بهما نائب العريف، قبل قليل، إلى جانبه:

- عليك أن تتدبر أمرك بهاتين البطانيتين.

- أنا جائع لم آكل منذ الصباح.

يخرج الجنديان، ويقفلان باب الزنزانة.

ينظر من النافذة إلى السماء، إنه المساء، لا شيء يبدو في الأفق، إلاّ قمم الأشجار المحيطة بالمكان، ترقد عليها الطيور الجارحة والغربان.

جدران الغرفة ملساء، خالية من المسامير، شكلها خشن وغريب.

يضغط عليها، فتنغرز سبابته فيها. ينزع عوداً من الرف الخشبي، ويدسُّه في الحائط. ينفذ بكل سهولة. واضح أنه مكون من ألياف دقيقة، مخلوطة بالجبس أو التراب الأبيض. لا شك أنها المادة المستخدمة في عزل الصوت. هي طريقة بدائية، لكنها فعالة كما يبدو.

بعد ساعتين، يحضر جندي قطعة خبز عليها بعض المقددات.. يتناولها بشراهة.

يُطفأ النور، فيلقي بنفسه على السرير، ويغطُّ في نوم عميق.

سيبدأ التحقيق معه صباح غدٍ.. سيتناوب عليه محققون متعددون، منهم اللبّن والجلف والذكي والغبي.. سيسألونه عن كل شاردة وواردة تتعلق بالمفتي، وسيجيبهم بما يعرف، فالذي يعرفه معروف للجميع، ولا أسرار لديه.

بعد أيام، سيضمون إليه في زنزانته، ولليلة واحدة فقط، ذو الكفل عبد اللطيف، بعد أن انتهى التحقيق معه، استعداداً لنقله إلى معسكر الترانزيت.. سيقص عليه ذو الكفل بألم قصة الإنزال الفاشلة، وكيف تخلى عنه أبناء محي الدين الحسيني، وسلموه للإنكليز مع صحبه الألمان. وكيف ساقوه إلى سجن القدس العسكري، وكيف نقلوه إلى معسكر المعادي هذا قبل عام.

سيخبره بشيء من المرارة والندم، كيف تمسَّك برواية واحدة، مفادها أنهم كانوا ثلاثة فقط في عملية الإنزال، وليس خمسة، لكي يفسح لحسن سلامة وداينغر فرصة الهرب.

سيقول له إنه لم يكن مضطراً لأن يواصل روايته، بعد أن تكشف كذبها من خلال زميلة الألماني فيلاند الذي انهار في التحقيق، وأخبر المحققين بكل

شيء، حتى إنّه أخبرهم بأشياء لم يكن مضطراً لها، منها تفاصيل السهرة الأخيرة مع المفتي، قبل بدء العملية.

سيخبره عن العذاب الذي تعرض له بسبب إصراره على رقم الثلاثة، وكيف كانوا يوقفونه ليالِيَ كاملة على قدميه، ممنوعاً من النوم أو الجلوس أو الاتكاء على الجدار، وإن فعل أيقظوه بحراب البنادق والركل والرفس والضرب. وكيف كانوا يجبرونه على تناول العقاقير التي تشلّ الحركة وتثبط الهمة، بغية الضغط عليه، وانتزاع الاعترافات منه.

بعد أربعة شهور، سيلتقيان مجدداً في معسكر الترانزيت، وسينقلان معاً صحبة محمد البرناوي من جديد إلى سجن القدس العسكري. وهناك سيطلق سراح الكيالي والبرناوي، وسينقل ذو الكفل إلى سجن نابلس، ليبدأ رحلة أخرى من الانتظار.

بعد سنوات، وفي إحدى زيارات ذو الكفل والكيالي إلى بيت المفتي في مصر الجديدة، بعد أن زهد بجامعة الدول العربية واعتكف بعيداً عن الأضواء، سيروي لهما ذو الكفل قصة السموم التي لفقها محققو الاستخبارات البريطانية.

أوهموه، يومها بأن حسن سلامة معتقل أيضاً، وهو في الحقيقة نجح في تضليلهم، ووصل إلى رام الله، وواجهوه بمعلومات، ادّعوا أن فيلاند اعترف بها، حول سموم اصطحبوها معهم، ضمن الأحمال التي ألقيت من الطائرة.

سيستغرب المفتي بشدة إثارة هذا الموضوع، فهو مجرد فكرة، طرحها حسن سلامة للانتحار، إن وقعوا في أيدي الأعداء.. وهي فكرة رفضها وحذر منها، لأنها تتعارض مع الشرع الإسلامي.

سيقول ذو الكفل، إنهم واجهوه باعتراف لفيلاند، زعم فيه أنه وأبو علي أتيا إلى مكتبه، لإحاطته علماً بموضوع السموم، وبأنها للخونة العرب الذين تسبَّبوا في إفشال الكثير من هجمات العصابات قبل الحرب.

سيتساءل ذو الكفل باستغراب شديد، وهو يحدثهما، عن السبب الذي دعا المحققين البريطانيين إلى تحويل هدف وجود السمّ، في فترة لاحقة من التحقيق، نحو اليهود.

يومها، قال له المحققون إن اعترافات فيلاند أكدت أنَّ المفتي أصدر أوامره بتسميم حياض المياه الخاصة باليهود.

فردّ عليهم بتلقائية:

- هذا العمل دنيء، لا يقوم به إنسان يحترم إنسانيته. وهو عمل لا يقوم به إلا مجرم نذل وجبان، وهذه جريمة لا يمكن لسماحته أن يسمح للعرب باقترافها.

ثم استطرد قائلاً، بعد أن استجمع أفكاره:

- ليس هناك في فلسطين أحواض مياه خاصة باليهود وحدهم، فمعظم أحواض المياه، وخصوصاً في المدن الكبيرة، مشتركة بين العرب واليهود.. وعلى فرض وجود حياض مياه خاصة باليهود، فإن سماحته لا يمكن أن ينصح بالعبث بها، لأن مياه العرب في قراهم مكشوفة، وأكثر تعرّضاً وأسهل للعبث بها.

ستنفرج أسارير المفتي وهو يستمع إلى ذو الكفل، بعد أن اعترته كآبة، واجتاحه غضب في بداية الحديث.

وسيتابع ذو الكفل حديثه، مفنداً اعترافات فيلاند المزعومة، عن تسميم خصوم المفتي، وسماسرة بيع الأراضي:

- لا يمكن أن يأمر سماحته بذلك للأسباب التالية: أولاً، لأن سماحته أعلم الناس بطبائع العرب، وبالتالي، هو يعلم أن لا شيء يثير العربي ويعمق حقده، كالثأر.. وثانياً، هو يريد أن يبني قضية وطنية، ولا يريد أن يكون له أعداء شخصيون.. فمهما سمت منزلة المرء عند العرب، تتلاشَى هذه المنزلة، عندما تكون هناك ثارات شخصية.

سيربت المفتي على كتف ذو الكفل بفخر:

- سلم الله فمك، كأنك تنطق بما في قلبي.

يبتسم ذو الكفل ويتابع حديثه:

- قلت لهم إنكم أكثر الناس، يا دائرة الاستخبارات البريطانية، علماً بأثر الاغتيالات الشخصية في إخماد جذور الثورة في فلسطين، ولا تستطيعون إنكار تدخلكم في هذا المضمار، لإخماد الثورة.

سيتابع المفتي الحديث، وكأنه يكمل ما بدأه ذو الكفل:

- بالفعل، كانت الاستخبارات البريطانية قد استغلت الاغتيالات في صفوف العرب، إبان الثورة في 1936، لإثارة الفتنة بين العائلات في حينها، بمحاولة إلصاق تهمة تصفيتهم بي وبرجالي، وعلى رأسهم الشهيد عبد القادر الحسيني!

بعد سنوات طويلة، سيكتب ذو الكفل رسالة إلى باحث، كان يعدّ كتاباً عن يافا، سيشرح فيها كيف أعيد الألمان إلى بلدهم، بعد نهاية الحرب في عمليات تبادل الأسرى.. وكيف تحفّظت عليه سلطات الانتداب البريطانية، وأودعته سجن نابلس. وكيف مدّدت اعتقاله أكثر من مرة؛ أملاً في تغيير مواقفه من التقسيم. سيكتب كيف أخبره أبو حنا، شاويش السجن، أن الإنكليز سيأخذونه معهم إلى بريطانيا رهينة للمفاوضة مع المفتي. وكيف

تمارض في سجنه، وكيف ساعده أهل نابلس وأطباء المستشفى على الهروب، وكيف وصل إلى عمان، وبعدها إلى دمشق، فبيروت، فالقاهرة. حيث كان هنا في رأس سنة 1948.

القاهرة، 1 نيسان 1947

ينهي محمد صالح الكيالي لقاءه مع أعضاء لجنة الإعلام والدعاية في جامعة الدول العربية بنجاح، ظنه للوهلة الأولى بنجاح!

أخبره رئيس اللجنة أن المفتي رشحه لهم، لكي ينجز فيلما تسجيلياً عن قضية فلسطين.

حدّثهم عن الاسم الذي يقترحه، «أرض السلام»، وعرض لهم الأفكار التي ينوي وضعها في الفيلم.. لقطات للمدن الفلسطينية منذ بداية القرن وحتى ذلك الوقت، حياة الفلسطينيين وأنشطتهم وأعمالهم، وتركيز على التطور الحضاري الذي كانوا ينعمون به، لقطات لسفن الهجرة اليهودية، مقارنات توضيحية تتضمن خرائط ومصورات حول الوجود العربي والهجرات اليهودية، ورسوماً بيانية، تتضمن أرقاماً وأحجاماً توضح الهجرة اليهودية، اعتماداً على الإحصائيات المحايدة، مما تعلم إنجازه في مركز الفيلم التجريبي ومعهد لوتشييه، وذلك مع تعليق صوتي معبر.

وافقوا من دون نقاش، وطلبوا منه تحديد الميزانية المطلوبة.

قال لهم: إن الميزانية لن تقف حجر عثرة في طريق إنجاز هذا الفيلم، ستكون متقشفة إلى أبعد الحدود.

نظروا إلى بعضهم، وقالوا له: ولماذا تكون متقشفة.. أنفق يا أخي أنفق، هذه فلسطين، قضيتنا الأولى!

قال لهم: الميزانية أمر مرتبط بالسوق، وهو لا يعرف أسعار القاهرة.

مع ذلك طلبوا منه تحديد مبلغ معين.

لا يحب التعامل بالنقود.. اقترح عليهم أن يشتروا له طلباته التي كتبها على ورقة، قبل موعد الاجتماع.

قالوا له: أنت اشتر ما تريد، وزودنا بالفواتير.

قال لهم: لا علاقة لي بمسائل البيع والشراء، لا بدّ من تعيين مدير للإنتاج.

قالوا له: وما مدير الإنتاج؟

قال لهم: هو آمر الصرف، المتكفل بالإنفاق على الفيلم.

نظروا إلى وجوه بعضهم وهم يبتسمون، وقالوا: مدير الإنتاج من عندنا!

اقترح عليهم أن يصور الفيلم في فلسطين، وأن تجري العمليات الفنية، من تظهير وطباعة ومونتاج هنا في القاهرة.

قالوا له: حدّد، اسم الشركة، أو الشركات التي ستتعامل معها؟

قال لهم: لدي خيارات كثيرة.

قالوا له: حدّد خياراتك.. فاتفقوا على موعد لاحق، حتى ينجز التصور الإنتاجي العام للفيلم، ويرى مع أي الشركات سيتعامل.

لم يكن يتوقع أن يأخذ الجانب الإنتاجيُّ كل هذا النقاش. ربما توقع أن يجادلوه ببعض أفكار الفيلم، وأن يطلبوا منه التركيز على نقطة وتجاهل أخرى، أو أن يركز على المجهود الحربي على حساب العرض السياسي، أو أن يبالغ بالدور الإيجابي للحكام العرب في القضية.. لكن، لم تصدق أيٌّ من توقعاته، كان الحوار فقط في الجوانب المالية والمصروفات المتوقعة.

سوف يذهب، الآن، من فوره إلى المفتي في قصر أنشاص ليراه، وليشكره على هذه اللفتة الرائعة، فمنذ خروجه من السجن قبل عام، لم يفعل شيئاً سوى مطالعة الصحف، والتلهّي بالصور الفوتوغرافية في أستديو «المصور الفني».

سيلتقي المفتي بالأحضان والقبل، وسوف يخبره بألم عن أوضاع البلاد المتراجعة، وعن أفول فلسطين وغروبها، وولادة كيان متجسد على الأرض يسمونه إسرائيل.

سيحدّثه كيف ازدهرت تل أبيب، وكيف اضمحلت يافا..

سيذكر له بالتفصيل كيف اعتقلوه، وكيف استنطقوه، وسألوه عن المفتي والفاشية والنازية، وكيف أطلقوه لعدم وجود الأدلة، بعد عام من التوقيف الاحترازي.

سيخبره المفتي باستفاضة كيف سلمه السويسريون للفرنسيين. وكيف نقله هؤلاء بطائرة إلى باريس، وأودعوه لافارين قرب مدينة نانت في الجهة الغربية من فرنسا، مع أميني سره، راسم الخالدي وإسحاق درويش، في بيت موحش رطب، تسبب له بآلام المفاصل والروماتيزم، تحت نظر حراس شديدي التيقظ. وكيف أرسل له صديقه القديم، سي قدور بن جبريت، عميد مسجد باريس، طباخاً وخدماً، بعد أن أعيتهم، هو ومرافقيه، شؤون المنزل الكبير الواسع، من غسل وطبخ وتنظيف وبستنة.. وكيف انتقل أخيراً، وبعد إلحاح الزعماء العرب، أمثال شكري القوتلي والحبيب بورقيبة والملك عبد العزيز والملك فاروق وغيرهم، إلى دار جديدة واسعة في لوفيسيان، على مرتفعات بوجيفال؛ قرب باريس، في طريق فيرساي، تحيط بها الأشجار الباسقة من كل صوب، كأنها جزيرة معزولة، منقطعة عما يحيط بها من حياة.

سيستذكر أمامه، سيرة الأمير عبد القادر الجزائري، وكيف حبسه الفرنسيون، أيضاً، في قصر قديم سنوات عدة. وكيف حاولوا استغلال وجوده عندهم للتأثير على الثورة الجزائرية، حيناً، وعلى مصير السلطنة العثمانية، حيناً آخر، عندما عرضوا عليه تنصيبه ملكاً على العرب، ورفض طلبهم.

سيسهب له في الحديث عن محاولات مشابهة جرت معه، رفضها أيضاً، إذ فاوضوه للتأثير على زعامات البلاد العربية الواقعة تحت احتلال فرنسا، وكيف استغلوا مطالب السفيرين البريطاني والأميركي اللحوحة بتسليمه، ومحاكمته أمام حكومة فلسطين الانتدابية، وسيلة أخرى للضغط عليه.

سيحدّثه عن مقالات كانت تنشرها الصحافة البريطانية والأميركية والفرنسية، المعروفة بولائها للدوائر الصهيونية، والتي اتهمته بالمشاركة والتحريض على قتل اليهود، وكيف كانت تتساءل، بوقاحة منقطعة النظير، عن أسباب عدم محاكمته كمجرم حرب في محكمة «نورمبرغ».

سيحدّثه عن الدور الأول، والجانب الأهم، في تلك المغامرة العجيبة، صديقه معروف الدواليبي، رئيس وزراء سوريا فيما بعد، عندما أعطاه جواز سفره، وكيف استبدل صورته، وغيّر لباسه، وحجز مكاناً في طائرة مسافرة من باريس إلى القاهرة.

سيخبره بثقة مطلقة، كيف رافقته العناية الإلهية، ولم يعترضه أي عائق، لا في مطار أورلي، ولا في مطار روما، وكيف أمضى ليلة كاملة في العاصمة الإيطالية، بسبب أحوال الجو المضطربة، من دون أن يتعرف عليه أحد، وكيف هبطت الطائرة في اليونان للتزود بالوقود.

سيخبره، وهو يضحك، كيف أوصل رسالة شكر وأسف للحكومة الفرنسية، مع سكرتيره وابن أخته إسحاق درويش، بعد أن حطت طائرته في القاهرة، واتصل به، هاتفياً، ليزف له خبر الوصول إلى البلاد العربية بسلام.

سيخبره، بشيء من الحماس، كيف شكلت جامعة الدول العربية هيئة عليا لفلسطين، وكيف أسندت له رئاستها. وسيحدّثه عن خططه في دعم المجاهدين وتسليحهم، وكيف أن فيلمه السينمائي هذا سيكون النشاط الدعائي الأول للهيئة ولقضية فلسطين.

بعد عام، وقبيل نكبة فلسطين بشهر، سيبلغه الكيالي كيف طلبوا منه في الجامعة إيقاف تصوير الفيلم، أكثر من مرة، وكيف طالبوه بتسليمهم أشرطة النيكاتيف التي صورها. وسيتذكر بمرارة، أمام المفتي الغارق، في حزنه، كيف ماطلوه في التمويل، ولم يستجيبوا لأبسط طلباته، وكيف ساوموه على بعض الفواتير، وكيف مضى في تصوير الفيلم على عاتقه الشخصي، على الرغم من طلباتهم المتكررة بالتوقف.

سيلتقيه بعد أربع سنوات في بيته في مصر الجديدة، بعد أن ترك قصر أنشاص، ونفض يديه من الجامعة العربية و«قرفها». وسيلتقي عنده، على مأدبة الغداء، مفتي طرابلس الغرب الشيخ محمد أبو الإسعاد، مع وفد كبير من زعماء ليبيا وشيوخها الذين قصدوا القاهرة، لمحادثة الجامعة بشأن استقلال بلدهم.

وسيستعيد، بعد سنوات طويلة، حين ساقته أقداره إلى طرابلس الغرب، تفاصيل ذلك اللقاء، وكيف احتدّ نقاشهم وارتفعت أصواتهم، بين مؤيد لتدخل الجامعة ومعارض، وكيف حدّثهم المفتي بانكسار وألم، حين استفتوه بالأمر، عن قضية فلسطين، وما أصابها من أذى كبير بسبب وضع الجامعة العربية، واختلاف كلمة أعضائها، وضعفهم أمام الضغوط الأجنبية. وكيف

حدّثهم بمرارة عن انتزاع القرار منه، ومن الهيئة العليا، رغماً عن إرادته، وكيف أبعدته عن معركتها الحاسمة في عام 1948، وسلمت شؤونها إلى خصومها الألداء، كالجنرال كلوب باشا أبو حنيك في الشؤون العسكرية، والجنرال كلايتون في الشؤون السياسية.

سيتذكّر نظرات الذهول في عيني المفتي، وملامح القهر على قسمات وجهه المتعب، وهو يقول للشيخ أبو الإسعاد: لم تكتف الجامعة بذلك، فأصدرت قراراً في نيسان 1948، أي قبل انتهاء الانتداب البريطاني، ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، عهدت فيه إلى الجنرال سبيرز بشؤون الدعاية لقضية فلسطين، وحولت إليه 52 ألف جنيه، فكان قراره الأول، إيقاف الحملات الدعائية التي بدأت بها الهيئة العربية العليا، وأولها فيلم «أرض السلام».

لن يفاجأ الكيالي بهذا الكلام الذي كان يسمعه للمرة الأولى، لكنه سينتبه فجأة إلى الشيب، وقد كسا لحية المفتي وغزا حاجبيه، كأنه هرم للتو مرة واحدة، وهو يقول كلماته الأخيرة للشيخ أبي الإسعاد: تولوا قضيتكم بأنفسكم، ولا تسمحوا لغيركم بالتدخل فيها.

بعد سنوات طويلة، وبالتحديد في الرابع من تموز من العام 1974، سيسمع من الإذاعة الليبية خبر وفاة المفتي في بيروت، بعيداً عن القاهرة التي غادرها قبل ثلاثة عشر عاماً، عاتباً على عبد الناصر.

سوف يبكيه بشوق، وهو يتذكر ابتسامته الأبوية، ووجهه الطلق السمح، وفيلا كولونا، وغوته شتراسه، وبرلين المدمرة، ومطار بيرن، وحفنة النقود الذهبية، وتلويحة يده من خلف زجاج الطائرة.

القاهرة، 23 شباط 1953

لا يكمل إبراهيم لاما مشاهدة فيلم «ريا وسكينة».. يخرج من الصالة، بعد أن شعر بضيق في صدره.. لا يحبذ هذه الطريقة في معالجة الأفلام. السينما ليست نسخة عن الواقع. السينما حلم، عالم مشتهى.. خاض سجالات حامية مع كمال سليم، بعد عرض فيلمه «العزيمة» في العام 1939. كان الفيلم صورة عن الحياة الواقعية في حي شعبي مصري، يفتقر إلى أهم شيء في السينما، وهو الخيال. وها هو صلاح أبو سيف تلميذه النجيب، يكرر «خطايا» معلمه، ويحول قصة ريا وسكينة إلى فيلم كئيب، لا تشويق فيه ولا خيال.

يركب سيارته، ويمضي إلى بيته في شارع الملكة نازلي، قرب ميدان رمسيس. يصعد إلى الشقة بثاقل كبير. يتناول من الثلاجة زجاجة ويسكي، ويمضي إلى الشرفة.

لم يشعر بلحظة سعادة حقيقية منذ سنوات ست، حين اختطف الموت شقيقه بدراً، ذات مساء خريفي كئيب.

يشرب الكأس الأولى من دون صودا أو ثلج.. لم يعد الكحول، منذ زمن بعيد، يجدي في إبعاد كآبته المقيمة.

خرج مبكراً من الفيلم، لكي يتحاشى الأسئلة المحرجة التي ستنهال عليه فور انتهاء العرض.. سيضطر للمجاملة، ولا طاقة لديه لإزجاء أي مديح لأي فنان في هذا العالم.

يجرع الكأس الثانية مرة واحدة.

لم يكن يرغب في حضور أي فيلم، لكن الفضول دفعه لتلبية الدعوة الملحاحة من صديقه القديم أنور وجدي.. وها هو يغادر شبه هارب قبل انتهاء العرض، لكي لا يحرجه بأي سؤال يتعلق بأدائه.

كان فيلماً رديئاً وتمثيله في الفيلم أردأ.. كتب نجيب محفوظ السيناريو على مقاس البطل، وسخَّر كل الشخصيات من أجل بطولة مطلقة فارغة على مقاس «نجم مصر الأول»، حتى إنَّ البطلتين الحقيقيتين للقصة، تحولتا إلى ما يشبه الكومبارس الناطق، أمام مساحة الدور الواسعة لأنور وجدي.

يستعيد المرة الأولى التي فكر فيها بعمل فيلم عن قصة ريَّا وسكينة.. كان ذلك في الفترة التي أعقبت عرض فيلمه الأول «قبلة في الصحراء».. لكنها فكرة لم تصمد طويلاً. كان يلمح نظرات الرعب في العيون عند ذكر تلك القصة. لم يجد أحداً في الإسكندرية يود أن يتذكر، مجرد تذكُّر فقط، قصص السفاحتين الغريبتين اللتين روعتا المدينة، وأزهقتا أرواح كثيرات بطريقة مذهلة في بشاعتها، طمعاً بقطع متواضعة من الذهب.

صعق يومها، حين اكتشف أن تفصيل مقتل ابنة ريَّا على يد أمها وخالتها مجرد خيال شعبي، لا أصل له في الواقعة الحقيقية المدوّنة في سجلات المحكمة.. أضفتها مخيلة الناس على القصة الأصلية، زيادة في الإثارة والتشويق، ووصولاً إلى لحظة انتقام القدر.

لا يحب الناس النهايات المفتوحة، لا بدّ من نهاية سعيدة، لا بدّ من انتقام إلهي، لا بدّ من اكتشاف الظلم ومحاسبة الظالم.

ربما، حفّز الموت الغامض لبديعة ابنة ريَّا، بعد إعدام أمها وخالتها بأعوام ثلاثة، ذاكرة الناس على ربط موت الابنة بالجرائم المتسلسلة للأم!

بدا موت بديعة للناس، في البداية، كأنه انتقام إلهي متأخر. وبعد عام، حذفت المخيلة الشعبية الفارق الزمني بين الواقعتين، لتبدُوَا وكأنهما وقعتا في سياق متصل.. وبعد عام آخر، أصبحت الأم والخالة هما قاتلتَي الابنة التي أضفى المخيال الشعبي على حياتها تفاصيل جديدة، جعلها تعيش بعيدةً عن أمها، في حجر والدها الثري المتنكر لريَّا الفقيرة، ثم لتعود امرأة مكتملة، تضع في يديها أساور الذهب، وتتزين بالأقراط والعقود الثمينة، قبل أيام من زفافها!

- يا للخيال الخلاق!

يقول لنفسه، وهو يجرع الكأس الثالثة.

يتذكر كيف ربط بين هذه الرواية الشعبية ونهايتها المتخيلة والمثيرة وبين مسرحية «سوء تفاهم» للكاتب الفرنسي ألبير كامو. لا شك في أنه سمع القصة على طاولة في أحد مقاهي الجزائر.. نسج منها مسرحية، ذاع صيتها في جهات الأرض الأربع.. عن أم وابنتها تديران نزلاً نائياً في ريف موحش، وتمتهنان قتل الزبائن وسرقة أموالهم، لكن المفاجأة تصعقهما حين تكتشفان أن ضحيتهما الأخيرة هي الابن الوحيد الذي غادر منذ سنوات طويلة، بحثاً عن عمل، وعاد رجل أعمال ثري، أحبَّ أن يداعبهما بإخفاء هويته الحقيقية عنهما، فيقع سوء التفاهم المروِّع! فتقتل الأم ابنها والبنت شقيقها، طمعاً في نقوده الكثيرة.

يبتسم إبراهيم لاما، وهو يتذكّر مقالات الإطناب لهذه المسرحية، التي حاول كامو أن يحمِّلها فلسفته الوجودية، حول عبثية الحياة وعمى الأقدار، لكنه لم ينجح. تنبه قليلون، وهو منهم، إلى الحبكة الميلودرامية، ذات الملامح الشعبوية للمسرحية، وعدم انتمائها إلى العالم الوجودي!

كان يمكن أن يصنع فيلماً مشوقاً بحبكة بوليسية غامضة، لكن رعب الناس من اسم ريَّا وسكينة جعله يحزم أمره مستبعداً فكرة الفيلم. فالعرب، كما اتضح له، يحبذون رؤية بيوت الأثرياء الفارهة، وحياتهم المدنية المنعَّمة، أكثر من رؤية البدو والصحراء.. وقصص الجرائم المرعبة!

لم يضيّع يومها وقتاً كثيراً.. كتب فيلماً مشوقاً أسماه «فاجعة فوق الهرم»، عن ثري يدعى سعيد، يحب فتاة ثرية تدعى منيرة، لديه صديق خائن يدعى سليم، يحيك له الدسائس لكي يستحوذ على منيرة، فيقتل شقيقها فتحي، ويتهم سعيد بالجريمة، ويودعه السجن، ثم يستدرجها ليعتدي عليها، لكن أحداً ما، في لحظة حرجة، يكشف الحقيقة، ويُظهر براءة سعيد، وجرم سليم!

تسري الكآبة في عروق إبراهيم، مع الخدر المرافق للكأس السادسة..

يتذكر فاجعة شقيقه بدر، وكيف اختطفه الموت دون مقدمات قبل نكبة فلسطين بعام، وفاجعته هو بعد النكبة، وكيف لاحقه بعض متعصبون جهلة، ظانين أنه يهودي، لمجرد وجود يهود مصريين في بعض أعماله، وكيف اضطر إلى مغادرة مصر عامين رغماً عنه، قبل أن يعود إلى بيته وعمله، بمسعى خاص من أنور وجدي، ومساعده محمد صالح الكيالي، لدى المفتي الحاج أمين، الذي زكّاه لدى السلطات المصرية، وأكد لها أنه فلسطيني

وعربي مسيحي من مدينة بيت لحم، ولا علاقة له باليهود واليهودية، لا من قريب ولا من بعيد!

يجرع الكأس الأخيرة، ثم يلقي بها إلى الشارع، فتصيب سيارة واقفة.. يدخل إلى الصوفا مترنحاً، ويلقي بجسده على الأريكة، محاولاً أن ينام.

بعد نحو ثلاثة شهور، في الرابع عشر من أيار، ستكتب جريدة «الأهرام» على صفحتها الأولى: «مخرج سينمائي يقتل زوجته وينتحر.. قصة حب تنتهي بمأساة مروعة.. جريمة بشعة ذهبت ضحيتها سيدة في مقتبل العمر، وانتهت بمصير مؤلم لمخرج سينمائي معروف، وهو الأستاذ إبراهيم لاما».

وستكتب «الأهرام»، في متن الخبر، أن قسم بوليس الأزبكية تلقى نبأ حادث قتل في المنزل رقم ١٥٨ بشارع الملكة في ميدان «رمسيس»، فانتقل على الفور، كل من البكباشي حسن كامل مأمور القسم، والصاغ حافظ عفيفي نائب المأمور، والملازم أول سعد عفيفي، ولحق بهم وكيل النائب العام. وفي الطابق الأول من المنزل، عُثر على جثمان سيدة في الثامنة والعشرين من عمرها، هي إيزابيلا جورج، مصابة بأعيرة نارية في بطنها ورأسها وظهرها، وإلى جوارها إبراهيم، مصاباً برصاصة في رأسه، وكان قلبه لا يزال ينبض. وعثر إلى جوارهما على مسدس ألماني الصنع، ويفارق إبراهيم الحياة، قبل وصوله إلى مستشفى الدمرداش.

وستذكر «الأهرام»، أن النيابة فتشت منزل إبراهيم بعد وفاته، فعثرت، هناك، على رسالة تحمل تاريخ وقوع الحادث نفسه، موجهة إلى النيابة العامة، يقول فيها إنه سيقوم بآخر المحاولات مع زوجته، لعودتها إلى منزل الزوجية، وأنه سيضع حداً للأمر.

وبعد يومين، في السادس عشر من أيار، سيتصدَّر «الأهرام» خبرٌ عنوانه: «المخرج الذي قتل زوجته وانتحر».. وستنشر «الأهرام» أقوال إميل بيطار، صاحب المنزل الذي وقع فيه الحادث، سيقول فيها إنه كان نائماً، حينما حضرت المجني عليها لزيارة زوجته، واستيقظ عند وصول إبراهيم لاما، وشهد استقبال زوجته له، قبل أن ينصرفا إلى الفناء الداخلي. وسيقول إميل إنه سمع الحوار الذي دار بين إبراهيم وإيزابيلا، بشأن عودتها إلى منزل الزوجية، لكنها أصرّت على عدم العودة، بسبب ما تلقاه من سوء المعاملة. وسيقول إنها كانت تتحدث بصوت عالٍ، إلى أن سمع طلقاً نارياً تبعه آخر.. أما الأول، فكان في جسد زوجته، والثاني في رأسه».

مع توالي أخبار الفاجعة التي رسمها إبراهيم لاما فوق الهرم، بدمه هذه المرة، ستواصل صالات القاهرة والإسكندرية عرض «ريّا وسكينة» شهوراً تالية، وسيلقى الفيلم إقبالاً منقطع النظير.. سيردد الناس أهازيجه: «حسرة عليها حسرة عليها»، و«الملاحة والملاحة وحبيبتي مالية الطراحة».. فالخوف من تذكر اسم ريَّا وسكينة سيكون قد فارق القلوب بلا رجعة، بل سيصبح بعد سنوات طويلة مدعاة للضحك والتندر!

مخيم شاتيلا، 15 أيار 1976

منذ أيام ثلاثة، والمخرج الرفيق باسم يعد لهذا العرض السينمائي، نظّف قاعة الاجتماعات الكبيرة في مكتب «الجبهة» بيديه. رتّب كراسي الجلوس بطريقة تسمح بأكبر قدر من الرؤية، أعاد الستائر إلى العمل، بعد أن أكلها الصدأ، وفوق هذا وذاك، صنع بنفسه شاشة للعرض، من قطعة قماش بيضاء زادت من إحدى اللافتات الكبيرة التي تمجد ذكرى الانطلاقة الثامنة.

كانت صور الأمين العام وماركس ولينين وجيفارا وكمال جنبلاط وعدد كبير من شهداء «الجبهة» تغطي الجدران، بينما تناثرت لافتات ورقية هنا وهناك، مكتوبة بأقلام عريضة ملونة، تؤكد على استمرار النضال، وتطلب الموت للخونة والمأجورين! وفي آخر القاعة، تنتصب آلة عرض سينمائية لأفلام الـ«16MM».

يبدأ بعض الرجال من أهل المخيم بالتقاطر على القاعة، وعلامات الدهشة على وجوههم.

ما إن يدخل الواحد منهم، حتى يفغر فمه، وهو يتأمل الترتيب الجديد غير المعتاد، ويبحث عن أحد معارفه ليسأله: ما الحكاية؟ فيبادله الآخر السؤال نفسه.

ينقطع قدوم الرجال إلى القاعة، فيغلق محمود الباب بإحكام، ويهرع إلى الستائر التي يصدر بعضها أصواتاً مزعجة، وهو يغلقها.

يسود صمت، ثم تبدأ آلة العرض ببث لقطات بالأسود والأبيض، لمقاتلين في مواقعهم يتحصنون بالدشم، ويصوبون بنادقهم باتجاه العدو، ثم ينتظمون في رتل ويتحركون، وهم منحنون إلى جانب جدار واطئ.

بعد ذلك، يخرج متظاهرون في إحدى المدن العربية، وهم يحملون لافتات، كتب عليها: «لا للحل السلمي»، «الموت للخونة والمأجورين»، «عاش نضال العمال في كل مكان»، «أنت ثوري اصنع ثورة إذن».

تتكاثف اللافتات والرؤوس.

تركّز الكاميرا على الوجوه الغاضبة الهاتفة بشعارات متداخلة غير مفهومة.

يختتم الفيلم بلقطة لمجموعة مقاتلين ملثمين متجهين نحو غروب الشمس.

يضيء باسم الأنوار، بعد توقف آلة العرض، ويقف قرب الشاشة بلباس المقاتلين الأخضر، والكوفية على كتفيه، متسلحاً بكاميرا الـ«16MM»، كما يتسلح المقاتل ببندقيته.

يعلو لغط في القاعة، فيبادر المخرج الشاب مخاطباً الحشد، وكأنه يقرأ من صفحة مكتوبة:

- اسمي الرفيق باسم، وأنا مخرج سينمائي، سنوزع عليكم الآن استمارات، وأرجو أن تملأوها حول الفيلم والسينما، وأي شي بإمكانكم أن تسألونا عنه. وإذا لم أكن موجوداً، فالرفاق في المكتب يجيبونكم.

يلتفت باسم إلى الخلف، نحو طاولة في ركن القاعة، ويشير بيده:

- هذه هي الاستمارات التي تشكل بحثاً ميدانياً، نعمل عليه أنا والرفاق، في الوحدة السينمائية، لأنكم أنتم من سيقرر توجهات أفلامنا.

يرفع عجوز يده، طالبا الكلام، فيومئ المخرج له بالنهوض.

ينهض العجوز ويستجمع قدراته على الكلام، تلك القدرات التي فقدها فور نهوضه، ما أثار لغطاً في القاعة، ودعوة من الرفيق باسم له بالإسراع في إبداء الملاحظات.

- عدم المؤاخذة أستاذ، الله يعطيكم العافية على هذا الفيلم، شيء يرفع الرأس.

يبتسم باسم فيتابع العجوز:

- لكن، إن شاء الله في المرة القادمة، نتمنى أن تصنعوا لنا قصة جميلة، تشبه أفلام أيام زمان.

يعم القاعة لغط، ويبدو أن كثيرين يؤيدون هذا الاقتراح.

يحاول المخرج السيطرة على الموقف فيرفع صوته.

- رجاءً يا رفاق رجاءً.

يخفت صوت الهرج الذي عمّ المكان، فيتابع باسم:

- اسمحوا لي أن أعرفكم على السينما النضالية التي نحن بصدد العمل عليها. نحن يا رفاق نريد سينما لخدمة الثورة. سينما تفضح الأنظمة الإمبريالية وعملاءها، وتمجد نضالات الشعوب في سبيل تحررها.

يصمت باسم لحظة، ويتأمل الحاضرين الذين عقدت الدهشة ألسنتهم، ثم يتابع خطابه:

- الفيلم الثوري يا رفاق، سلاح يخدم الثورة، سواء في التعبئة الجماهيرية أو التحريض أو التثقيف السياسي وفضح العدو. والأفلام التي تتكلم عنها يا رفيق.. يا رفيق.

يهتف أحد الحاضرين: أبو العبد، فيتابع باسم:

- يا رفيق أبو العبد، هي أفلام تثبط من عزيمة الجماهير، وتحرضها ضد الثورة، وتدعوها إلى التخاذل والسلبية والأفكار العدمية.

يتقدم باسم باتجاه الجالسين، ويتابع حديثه في أثناء تقدمه.

- الأفلام التي تتكلم عنها، يا رفيق أبو العبد، مضادة لأخلاقيات حرب التحرير الشعبية وقيمها.

ينهض العجوز مقاطعاً المخرج:

- هل تقصد، يا أستاذ، أن أفلام عبد الوهاب سيئة؟

يهز المخرج رأسه مبتسماً بثقة، ويتابع بنبرة العارف:

- الذي أقصده، يا رفيق أبو العبد، والكلام موجه، أيضاً، لباقي الرفاق، أن حرب التحرير الشعبية وضعت مقاييس للفيلم الثوري. يعني، سلاح حرب التحرير الشعبية هو بندقية الكلاشينكوف، وهذا يعني أن كاميرا الـ«16MM» هي الأنسب، والفيلم الثوري الناجح يشبه العملية الفدائية الناجحة، لأن الفعلين يهدفان إلى تحقيق فعل سياسي ثوري خلاق. ومن أجل هذا، أتينا إلى المخيم وعرضنا أفلامنا عليكم، ونتمنى أن تستفيدوا من ذلك بشحن طاقتكم الثورية.

هنا، يتقدم رفيق آخر، يرتدي لباس المقاتلين الأخضر، بادئاً حديثه من حيث يتوقف المخرج باسم:

- أنا رفيقكم نمر من مركز التراث الشعبي، أردت، فقط، أن أضيف إلى ما قاله رفيقي باسم، إن المعركة الثقافية التي نخوضها ضد عدونا معركة طبقية المحتوى والمضمون. صراعنا مع عدونا صراع طبقي، وعدونا ليس إسرائيل وحدها، بل التشكيلة الطبقية اليمينية المعادية لتطلعات العمال. نحن في الوحدة السينمائية، وفي مركز التراث الشعبي، ندرك أبعاد هذه المعركة. لذلك سوف نركز في أفلامنا السينمائية، وأبحاثنا التراثية، على مقولات الصراع الطبقي، ونبحث عن دور العمال، بوصفهم حاملي قيم التحرر والتصدي للامبريالية وأذنابها في جميع دول العالم.

يحتدم النقاش بين المخرج والباحث من جهة، وجمهور المخيم من جهة أخرى فينسحب إبراهيم سرحان بهدوء، مخلفاً الجدال وراءه.

يخرج من القاعة، بعد أن أطبق على صدره طوال مدة النقاش جو ثقيل، فيأخذ نفساً عميقاً.

يختلس نظرة إلى القاعة، ثم يمضي باتجاه بيته الذي لا يبعد عن المكتب إلا بضع خطوات.

يتضاءل صوت النقاش شيئاً شيئاً، وهو يلج باب البيت المفتوح.

يغلق الباب.. يصعد الدرج. يضيء مصباح غرفته، فتبدو واسعة مرتبة بعناية.. ثمة سرير قرب النافذة، وطاولة عليها تلفزيون قديم، وأريكة مقابلة له، وبعض الكراسي، وعلى الجدار صورة كبيرة له في شبابه، وهو يحمل كاميرا سينمائية.

يقترب من الصورة، يتأملها قليلاً، ثم يهز رأسه، ويمضي إلى التلفزيون.

يدير مفتاح التشغيل، فتصدح أغنية «سهرت منه الليالي» لمحمد عبد الوهاب.

يتجه نحو المطبخ، ليعد فنجان قهوة وهو يتابع الأغنية.

يشعل سيجارة، وهو يضع البن في «الغلاية».

يردد كلمات الأغنية بشفاهه.

يسمع صوت جلبة أمام الغرفة.

يلتفت مستطلعاً.

ينفتح باب الغرفة، وينتصب شبحان أسودان لرجلين بلباس المقاتلين.

يدخلان من دون استئذان، إنهما المخرج الرفيق باسم، متسلحاً بكاميرا الـ«16MM» ومعه الباحث في مركز التراث الرفيق نمر، متسلحاً، هو الآخر، بآلة تسجيل ضخمة.

يخفض بصره، ويدعوهما للدخول ببرودة ظاهرة.

كان رجال المخيم قد أخبراهما في نهاية النقاش أن سمكري المخيم، إبراهيم سرحان، كان مخرجاً سينمائياً في فلسطين.

- أهلاً وسهلاً تفضلا.

يجلسان على الأريكة مقابل التلفزيون. ومع جلوسهما، تصل الأغنية إلى مقطع «ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال».

يجتاح الغضب وجه باسم، فيما ابتسامة ماكرة ترتسم على وجه إبراهيم سرحان.

ينهض باسم بعصبية إلى التلفزيون، ليخرسه، فلا يجد مفتاح التشغيل.. تعيقه الكاميرا.. يبحث عن الزر بغيظ، وهو يعض على شفته السفلى، فلا يجده.. تزداد عصبيته، فيستدير غاضباً ليسأل إبراهيم سرحان عن كيفية إسكات هذا الشيء، كما قال حرفياً، فتصدم عدسة كاميرا الـ«16MM» زجاج الشاشة.

تحطمها.. وتُخرس الأغنية.

طرابلس الغرب، 19 تشرين الثاني 1977

يسقط فنجان القهوة من يده. يشعر بضيق شديد في صدره. شيء ما يمزق رئتيه. يغيب صوت المذيع الذي كان ينقل الحدث بالإيطالية. تبقى الصورة وحدها تتحرك أمامه.

يظهر أنور السادات في أعلى درج الطائرة، وحوله لفيف من الرجال، أحدهم يتحدث معه، ويشير إليه بالنزول. يرفع يده للتحية مبتسماً، وهو يهبط.

عند أسفل الدرج، يصافح مناحيم بيغن بحراره وهو يضحك.. يلتحم الجمهور المتحمس بالسادات وبيغن.

يحاول أن يغلق جهاز التلفزيون، فلا يستطيع النهوض. شيء ما شلَّ قدميه.

يسير السادات مخترقاً الحشود، وهو يرفع يده للتحية.

يحمل كأس الماء بصعوبة بالغة.. يستجمع كل ما تبقى له من قوة.. يضرب التلفزيون.. تنفجر الشاشة كأنها قنبلة.

يتوقف نَفَسُهُ.. يحدّق في شيء ما، كأنما انفتح أمامه فجأة.. تتبدل ملامح وجهه.. يذهب الغضب ويحلُّ الذهول.. يرتسم على عينيه.

يتوقف قلبه.

فارق محمد صالح الكيالي الحياة، وهو جالس إلى مكتبه في طرابلس الغرب، يتابع نشرة الأخبار ببيجامته البيضاء، عبر إحدى القنوات الإيطالية، وهي تنقل بشكل مباشر، خبر وصول الرئيس المصري محمد أنور السادات على متن طائرة مصرية إلى مطار بن غوريون في اللد.

أتى الكيالي إلى ليبيا قبل خمس سنوات، وتحديداً في 1972، لاستكمال حلمه بقائد عربي يحمل راية «الوحدة والتحرير»، بعد الوفاة المفاجئة لعبد الناصر.

أنشأ في طرابلس شركة للأفلام التسجيلية، أراد من خلالها أن يوثق التحولات الكبرى، ومراحل البناء والتنمية في هذا البلد العربي النفطي الواعد!

بعد شهور من إقامته في ليبيا، أتى من يبلغه أن الأخ العقيد يريد لقاءه.

بعد يوم، أتت سيارة، وأقلته إلى القصر.

على باب المكتب، نبهه مدير التشريفات بأن لا يتأخر أكثر من ربع ساعة، لأن برنامج مواعيد الأخ العقيد مزدحم!

بهت من الملاحظة الغريبة، فلم يجبه.

وجد العقيد جالساً إلى مكتبه بكامل زيه العسكري، كأنه يستعد لحضور مناسبة عسكرية، يحدق بصمت إلى نقطة ما في سقف الغرفة.

وقف قليلاً.. أربكه عدم اكتراث العقيد لدخوله.. تقدّم، وهو يمد يده للمصافحة، فأشار له العقيد بالجلوس على كرسي محدد أمامه.

جلس فبادره العقيد دون مقدمات:

- صالح.. نرحب بك في ليبيا، ونتمنى لك إقامة طيبة في بلدك وبين أهلك.. ليبيا هي بلد كل العرب، ومنها ستتحقق وحدة العرب!

بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من الحديث المتواصل، حول مصر وعبد الناصر والسادات وفلسطين والمفتي والشقيري وعرفات والرجعية العربية والوحدة، توقف العقيد عن الكلام، ثم وقف معلناً نهاية الزيارة من دون مصافحة ومن دون وداع.. فقط، نهض وتوجه إلى النافذة.

خرج الكيالي بين مصدق ومكذب ما جرى معه.. لم يتح له العقيد فرصة للرد، حتى على بعض الأسئلة التي طرحها عليه.

راعه تقمص القذافي أنموذج موسوليني، ذلك الأنموذج الذي كرهه واحتقره في قرارة نفسه، بعد فراره المخزي من المعركة، وبحثه عن خلاص فردي مع عشيقته.

صدمته المبالغة في الأزياء والنياشين، والتفاتات الأخ القائد المفاجئة والنظرات الزائغة التي طابقها مع التفاتات الدوتشي ونظراته.

صدمه حب الثرثرة، فالدوتشي كان ثرثاراً كبيراً أيضاً.

أرعبه تشابه ملامح الوجه، وخصوصاً النظرات والفك الأسفل العريض. الدوتشي بالإيطالية تعني القائد بالعربية.. يا لهذا التطابق غير السعيد.

كان انبهاره بموسوليني قد تلاشى كلياً، بعد أن شاهد فيلم «سارق الدراجة» لفيتوريو دي سيكا.. أبكاه الرجل وطفله.. أي وهم أوصل الإيطاليين إلى هذا الحد من الجوع والفاقة؟ أي نظام قادهم إلى هذا الحضيض؟ أي قائد، وأي فكرة، أوصلتهم إلى سرقة الدراجات، لكي يسدّوا رمق أطفالهم؟

مع ذلك، كان العيش في دولة العقيد أخف ثقلاً، وأهون وطأة في رأيه، من العيش تحت حكم السادات.. حتى وإن كانت الشعارات خلبية وجوفاء، فهي أهون مائة مرة من شتم عبد الناصر.

أوجعه الجحود، وجَلْدُ العهد السابق.. أوجعته النظرات العدائية التي كانت تحاصره في مديرية الأفلام التسجيلية.

كان عبد الناصر قد أصبح بطله، بعد انهيار مشروع المفتي، وانزوائه في شقته بمصر الجديدة.. لم يعد لدى المفتي ما يقدمه، قبل رحيله الصامت إلى بيروت.

حاول أن يستبدل المفتي بأحمد الشقيري، الزعيم الفلسطيني الجديد الذي اعترف به العرب ممثلاً لفلسطين أولاً، ثم رئيساً لمنظمة التحرير ثانياً، فلم يستطع.. كان حضور المفتي الطاغي لا يزال يهيمن على مشاعره.. كان المفتي أباً للجميع، وزعيماً حقيقياً استحقّ، ليس زعامة الشعب الفلسطيني وحسب، بل زعامة العرب والسلمين جميعاً.

أين الشقيري منه!.. كان الزعماء العرب يسعون ما استطاعوا للقائه، بينما الشقيري ينتظر يوماً ويومين، وحتى أسبوعاً، لكي يحظى بموعد مع زعيم عربي.

كان المفتي قامة شامخة، بينما ارتضى الشقيري أن يبقى ظلاً باهتاً لزعيم آخر.

في فترة ما، فكّر في أن يصنع منه بطلاً ورمزاً، وإن بالسينما فقط، لكنه لم يكن مقنعاً.

رافقه ذات صيف من العام 1965، في إحدى زياراته إلى قطاع غزة، للاحتفال بتخريج دفعة من جنود جيش التحرير الفلسطيني.

صوَّر المقاتلين بلقطات تفصيلية، وجوههم وأيديهم وحركات أقدامهم.. صوَّر الجماهير المحتفية بهم.. صوَّر لقاء الشقيري مع وفد جزائري أتى لزيارة القطاع.. وصوَّر كلمة الشقيري الحماسية، أو التي كان يفترض أن تكون حماسية، في الاحتفال.

حين عاد إلى القاهرة؛ راجع المادة المصورة، فوجدها أقل وأبهت من أن تصنع فيلماً.. كان أداء الشقيري مشكلة المشكلات. لم يساعده صوته، إذ سرعان ما بحّ وفشل في إكمال الخطبة. لم يكن لديه أي جاذبية.. وهذا الأمر هبة من الخالق، لا تستطيع أي كاميرا أن تحتال عليه.

قرّر أن يسمي الفيلم «أقوى من الفناء»، إذ ركز فيه على الشعب الفلسطيني وتاريخ نضالاته؛ من وعد بلفور إلى تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وقلّل قدر الإمكان من ظهور الشقيري.

ومع ذلك، كانت لديه مشكلة الصوت، صوت الشقيري.

حاول عن طريق المكساج أن يصلح المشكلة، فلم يفلح، بل تسبب إصلاحها في مشكلة أخرى تتعلق بـ«الليبسينغ»، أي بتطابق الصوت مع الصورة.. كان الصوت في واد والصورة في وادٍ آخر.. حاول قدر المستطاع مع مهندس الصوت أن يصلح الخطأ فلم يفلح، بقي الصوت في واد والصورة في واد آخر.. هذا بالإضافة إلى مشكلة انفعالاته في أثناء الخطاب، وحركاته المبالغ فيها، دونما إقناع.

في إحدى الجلسات التي جمعته بصديقه، بهجت أبو غربية، وكان يومها عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة، سأله عن سبب اختيار الشقيري لزعامة الشعب الفلسطيني، وثمة كثيرون أكثر إقناعاً منه؟

كان رد بهجت، بعد أن صمت برهة وأخذ نفساً عميقاً، أن القرار أولاً وأخيراً بيد العرب، ولا رأي للفلسطينيين بالأمر، رئيس المنظمة مجرد موظف علاقات عامة ليس أكثر، أو إن شئت خبيراً قانونياً ودبلوماسيا، يجيد التفاهم مع الحكام العرب، وينفذ قراراتهم دونما نقاش.

لذلك، كان بطله بلا منازع، الرئيس جمال عبد الناصر.. زعيم حقيقي، وحضور آسر.

استعاد مع عبد الناصر حيوية المرحلة الإيطالية. أراد أن يستفيد من تجربته في معهد لوتشيه، فأسس مديرية للأفلام التسجيلية، أنجز من خلالها الكثير الكثير من الأفلام، عن منجزات حقيقية، وأخرى وهمية، من وحي الحقبة الناصرية.. «المستقبل لنا»، «صناعة الحديد والصلب»، «طريقنا طريق الثورة»، «مصرنا الحديثة»، «فجر جديد»، «من وحي الثورة»، «من هنا نبدأ»، «رجال الصلب»، «عجلة الزمن»، «ثورتنا الصناعية»، «نحو المجد»، «مرحلة الانطلاق»، «معركة الحضارة»، «عصر الفضاء»، «الذرة من أجل السلام».. وغيرها. لكن كل تلك الأفلام لم تكن تشفي غليله.. كان يحلم بفيلم يحلّق بأسطورة عبد الناصر عالياً، يضاهي به فيلم «انتصار الإرادة».

لم يتمكن طوال سنوات، من إثارة اهتمام وزراء الثقافة والإعلام ورجال الاتحاد القومي، ثم الاتحاد الاشتراكي.

لم يعبأ أحد بالأمر، حتى إنَّ بعضهم تعامل معه بعدائية سافرة، بعد أن طرح فكرة مقابلته للرئيس، لكي يبسط الأمر أمامه، علَّه يقتنع!

فجأة، التمعت في رأسه فكرة، وهو يطالع الأخبار عن بدء العمل في مشروع السد العالي، هذا المشروع العملاق الذي طال الحديث حوله

وتشعَّب، ودخل في لعبة المزايدات الداخلية، والمناورات السياسية الدولية، حتى ظنه مجرد مادة للجدل الصحفي، لن تتحقق على أرض الواقع.

أطلق على الفيلم، بعد تأمل طويل، اسم «بناة السد»، سيكون هو نفسه فيلمه عن عبد الناصر.. وكما كان مؤتمر الحزب النازي في نورمبرغ عام 1934 مدخل ليني ريفنشتال إلى فيلم «انتصار الإرادة»، سيكون مشروع السد العالي مدخله إلى فيلمه.

على مدى سنوات عشر صوَّر كل شيء تقريباً.

في المرحلة الأولى، صوَّر أهرامات الجيزة من الجو، وصور أسوان من البر والنهر والجو، أراد عقد المقارنة وإيجاد الرابط بين عظمة بناة الأهرام القدماء وعظمة بناة السد الحاليين.

رصدت لقطاته التفصيلية إنشاء سكك الحديد وحركة القطارات من سكن العاملين، بناة السد، إلى مواقعهم في محطات الكهرباء والمياه والهواء المضغوط.

صوَّر، بلقطات تفصيلية سريعة، المجهود الكبير الذي يتكبده العمال، وهم يحضرون الخرسانة، ويفجرون الديناميت لشق الغرانيت الصلب.. صوَّر ملامح وجوههم، ونظرات الإصرار في عيونهم، وحبات العرق المتساقطة من جباههم على وجوههم.

صوَّر، بلقطات جوية، بحيرة خزان أسوان، وبحيرة السد العالي، من النهر ومن الجو.. ركَّز على تيارات النيل الجارفة المتساقطة من فتحات سد خزان أسوان وعربداتها بين صخور الغرانيت. صوّر الفيضانات وتوربينات الكهرباء واستصلاح الأراضي الصحراوية وريها.

في مرحلة لاحقة، أراد أن يضع فيلم «بناء السد» في سياقه الناصري. استعان بلقطات قديمة، صور فيها عبد الناصر، وهو يعلن تأميم القناة، ولقطات أخرى للعدوان الثلاثي على بور سعيد، والمقاومة الشعبية، واستعان بلقطات أرشيفية لمظاهرات التنديد بالعدوان في البلدان العربية والعالم، ومشاهد جلاء قوات العدوان عن المدينة. ولقطات نصب الشهداء التذكاري، وأكاليل الزهور، والزوار، واحتفالات النصر.

بعد أربع سنوات، عاد ليصور الأعمال النهائية، فالتقط، من الجو والأرض، مشاهد مختلفة لحفر الأنفاق وتسليحها وتبطينها بالخرسانة.

استعرض، بمشاهد متلاحقة، احتفالات أعياد السد، من العيد الأول، يوم استقبلت الجماهير الرئيس بحفاوة تضاهي حفاوة أهالي مدينة نورمبرغ، وافتتاحه المشروع، برفقة الرئيس السوفييتي نيكيتا خروتشوف، بتفجير شحنة الديناميت الأولى، مروراً بتدشين مختلف المراحل على مدى السنوات العديدة، وحفاوة الناس بالرئيس في كل مرحلة من مراحل العمل.

كان صوت الرئيس، المجتزأ من أحد احتفالات عيد السد، خلفية هذه المشاهد جميعها والمشاهد الأخرى التي تصور عمليات بناء جسم السد وتحويل مجرى النيل، في الجزء الأخير من الفيلم.

كان هذا الحل الفني أدنى من طموحه بكثير. لم يرق له، لكنه كان خياره الوحيد، بعد أن فشل سنوات في إقناع أحد ما، بقبول تصوير خطاب الرئيس من زوايا مختلفة في أحد احتفالات السد.

كانت السطوة الأمنية أكبر من أي فيلم أو فكرة.. رجال المخابرات العابسون هم الذين يقررون وليس رجال الفن والإبداع.. وصل الأمر بهم أن استدعوه للتحقيق، بعد أن زاد إلحاحه على ضرورة تصوير الرئيس

بكاميرات عدة.. شكّوا في أمره، وأخضعوه للمراقبة الشديدة، ومنعوه من السفر.. استقصوا عنه حتى زوجته وزملاءه في العمل. ولم يقتنعوا ببراءته من شكوكهم، إلا بعد عامين.

لم يكتمل الفيلم، كما رسمه في مخيلته، وتمنى أن يحققه.. كان العنصر المحوري فيه، أي الرئيس جمال عبد الناصر، غائباً بصورته، حاضراً بصوته، وشتان بين الصوت والصورة. الصوت مسمع والصورة مشهد، والسينما مشاهد متتابعة تقاس بالأمتار.

أنجز نسخة احتياطية من الفيلم في نهاية المرحلة الأولى، وهي مرحلة بناء الجسم، بعد أربع سنوات من تصويره اللقطة الأولى في 1960.

انتظر سنوات أخرى.. صور فيها المراحل اللاحقة، من عمليات تجميل للمجرى، وتشغيل عنفات توليد الكهرباء، لكن مشهده الذي انتظره كلّ هذه السنين، لم يستطع تحقيقه عند الاحتفال بتشغيل العنفات في 1968، كانت مشكلة المخابرات على حالها، لم تتزحزح، بل زادت حدة بعد هزيمة حزيران في 1967، وضياع سيناء وتدمير سلاح الجو.. وتغير مزاج الرئيس، وكآبته، واستقالته، ثم عودته عنها، تحت إلحاح الجماهير.

غاب مشروع السد تحت ركام الهزيمة وغبار حرب التصفيات بين مراكز القوى، وعاصفة انتحار المشير.

لم يفقد الأمل على الرغم من ذلك كله.. بقيت أمامه الفرصة الأهم، والمناسبة الأبرز.. وهي الافتتاح النهائي للسد، سيسعى بكل ما يملك من طاقة وجهد وعلاقات، إلى إقناع رجال حماية الرئيس الجدد، الذين استبدلوا بعد النكسة، بالسماح له في تثبيت كاميرات ثلاث، لتصوير خطاب الافتتاح النهائي للسد. سيكون الخطاب الأهم في ملحمة البناء، سيضاهي به تصوير

خطاب الفوهرر في مؤتمر نورمبرغ. سيضع فيه خلاصة تجربته في التقاط التفاصيل والمونتاج والتأثيرات الصوتية والموسيقى. سيجعله جرعة إنعاش للأمة، بعد أن حطمتها مرارة الهزيمة، وجعلتها تفقد الثقة بماضيها وحاضرها ومستقبلها. سيبث الأمل في النفوس، ويعيد الألق إلى التناصرية التي بدأت السكاكين تتربص بها من كل صوب.

مات الرئيس..

رحل هكذا، في أحلك الأوقات وأدقها.. لم يمهله الزمن، لكي ينجز ما عاش وعمل سنوات طويلة لأجله.

يا لسخرية الأقدار. احتفل السادات بتتويج «ملحمة السد».. سيكتب التاريخ أن الرئيس محمد أنور السادات هو الذي افتتح السد العالي في الخامس عشر من كانون الثاني للعام 1971.

لم يقطف عبد الناصر الثمرة.. قطفها السادات.. يا لسخرية القدر.

بعد يومين، سيصل جثمانه إلى مطار القاهرة قادماً من ليبيا، في الوقت نفسه الذي سيصل فيه السادات قادماً من تل أبيب. سيمنعون دخول نعشه إلى أرض الكنانة، لدواعٍ شتى، منها وثيقة السفر الفلسطينية التي يحملها، وأمن الرئيس وسلامته. سينتظر النعش في الترانزيت ساعات وساعات، حتى يؤذن لجسده أن يوارى الثرى، قبل أن يتفسخ في التابوت.

مخيم شاتيلا، يوم ممطر من عام 1987

كأن المخيم فرغ من أهله!

يحمل رجال أربعة تابوت إبراهيم حسن سرحان.. يسير خلف التابوت ثلاثة فقط، ابنه سرحان وزوجة ابنه، وابنته.

تسير الجنازة بصمت ينقطع، بين حين وآخر، بأصوات القذائف والرشقات القريبة والبعيدة.

تخترق الجنازة أزقة المخيم الضيقة المبللة بالمطر، والمتقطعة، هي الأخرى، بأنقاض أبنية مدمرة.

معظم البيوت سويت بالأرض في العامين الأخيرين. دمرتها مدفعية ودبابات تحيط بالمخيم من جهاته الأربع، يقف عليها أشقاء يرفعون أعلاماً خضراء.

قبل سنوات قليلة، كان هؤلاء الأشقاء يتقاسمون مع أهل المخيم الماء والطعام والبيوت والقصف الإسرائيلي، وحتى المقابر!

الآن، منع هؤلاء الأشقاء الماء والطعام؛ عمن تبقى من أهل المخيم في الملاجئ القليلة، حتى أكل كثيرون القطط، وشربوا المياه الآسنة.

شهران لم ير إبراهيم سرحان الشمس، مختبئاً في ملجأ مدرسة الكادر. أشعل، هو وشركاؤه في المكان رفوف المكتبة التي كانت تحتوي مجلدات

لينين وماركس، ليتدفأوا بها، بعد أن نفد الوقود من مدافئ الهازوت والكيروسين.

ستة شهور لم يذق إلاَّ البرغل المسلوق المملح، والحلاوة الطحينية، وربما حظي، طوال هذه المدة، بعلبة سردين واحدة، وبعض لقيمات من مربى المشمش.

أتعب الحصار والقصف الأعمى روح إبراهيم سرحان.. أوهن جسده.. قصف عمره.

في حديقة مسجد المخيم، سيبكي الثلاثة، والثلاثة فقط، وهم يوارونه على عجل، في قبر حُفر على عجل، على مقربة من مسلحين متوترين وملتحين.. يصوبون مدفعيتهم باتجاه المخيم.

استفاد هذا العمل من كتب ومذكرات ومحفوظات أهمها:

- السينما الفلسطينية، قاسم حول، دار الهدف ودار العودة، بيروت 1979.
- مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني، إعداد عبد الكريم العمر، دار الأهالي، دمشق 1999.
- مذكراتي، ذو الكفل عبد اللطيف، دار سندباد، عمان 2000.
- مقابلة شخصية مع الأستاذ سعيد الكيالي والسيدة هالة الكيالي في القاهرة ربيع 2001.
- الأرشيف الشخصي للمخرج محمد صالح الكيالي.
- أرشيف معهد لوتشييه السينمائي في روما.
- أرشيف المركز القومي للسينما في القاهرة.

المحتـــويات

.1	مخيم شاتيلا، 18 أيلول 1982	7
.2	يافا، 26 نيسان 1925	13
.3	يافا، 15 أيار 1925	17
.4	يافا، 13 آب 1935	21
.5	يافا، 14 آب 1935	27
.6	القدس، 17 تموز 1937	33
.7	يافا، 13 تشرين الأول 1937	35
.8	يافا، 7 تموز 1938	41
.9	باريس، 1 شباط 1939	45
.10	بيروت، زوق مكايل، 13 تشرين الأول 1939	55
.11	يافا، 13 كانون الأول 1939	63
.12	القدس، 29 آذار 1940	67
.13	يافا، 29 آذار 1940	73
.14	روما، 15 أيلول 1940	77
.15	اسطنبول، 3 أيلول 1941	81
.16	روما، 17 تشرين الأول 1941	87

17. روما، قصر فينيسيا، 20 تشرين الأول 1941..... 91
18. روما، 25 تشرين الأول 1941..... 101
19. روما، 29 تشرين الأول 1941..... 105
20. برلين، 21 تشرين الثاني 1941..... 109
21. روما، 19 شباط 1942..... 115
22. مقاطعة سيليزيا، 17 نيسان 1943..... 121
23. برلين، 29 تموز 1943..... 125
24. برلين، 21 حزيران 1944..... 131
25. ميلانو، 28 نيسان 1945..... 143
26. ميلانو، 29 نيسان 1945..... 153
27. يافا، 13 حزيران 1945..... 159
28. القاهرة، 20 أيلول 1945..... 165
29. القاهرة، 1 نيسان 1947..... 173
30. القاهرة، 23 شباط 1953..... 179
31. مخيم شاتيلا، 15 أيار 1976..... 185
32. طرابلس الغرب، 19 تشرين الثاني 1977..... 191
33. مخيم شاتيلا، يوم ممطر من عام 1987..... 201

Moviola

بلج الروائي تيسير خلف في عمله الجديد هذا منطقة شائكة في التاريخ الفلسطيني والعربي. نظراً لما تنطوي عليه من أسئلة كبرى لا تزال راهنة حتى لحظتنا هذه. فالعلاقة التي قامت بين النخبة العربية في أواسط القرن الماضي وبين الحركتين النازية والفاشية. نُظر إليها باعتبارها نقطة سوداء في تاريخ الحركة العربية والفلسطينية. ولا بد من محوها. أو تجاهلها في أحسن الحالات. أما هزيمة الجيوش العربية في حرب 1948 فنُظر إليها باعتبارها تخاذل من الأنظمة الرجعية. دون التحقق من طبيعة العلاقة بين تلك الأنظمة و القوى الاستعمارية. التي تشير الوقائع كلها إلى أنها كانت هي صاحبة القرار الحقيقي في الحرب والسلم. على الرغم من الاستقلال الشكلي الذي كانت تتمتع به الدول العربية في ذلك الوقت.

يحاول تيسير خلف في روايته تسليط الضوء على هذه الحقبة المجهولة من الكثيرين. عبر بنية روائية جميلة وجديدة كل الجدة. تستولد الوقائع من سياقاتها التاريخية ومن شخوصها الحقيقيين. ولذلك يبدو عمل خلف أشبه بمغامرة محسوبة النتائج. تمضي في عملية التخييل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه الخيال الروائي. وفي الوقت ذاته. تستند إلى قاعدة متينة من الوثائق والأحداث الحقيقية المثبتة بالمكان والزمان.

الناشر

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٠٠٩٦٢
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan - dar_fadaat@yahoo.com

ISBN 978-9957-30-465-2